نظريـــة التطـــــور

« عـرض ونقـــد »

دكتـــــورة

منى إبراهيم إسماعيل أبو شادى

أستاذ مساعد بقسم العقيدة والفلسفة

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية

لقد أردت من خلال عرض هذا الموضوع أن أبين تهافت هذه النظرية ومدى أثرها السيئ فى مجالات عديدة وذلك بعرضها ، وعرض رأى علماء الحياة والأحياء أنفسهم والتى ظهرت على يد أحدهم واشتهرت باسمه . وسوف أسلط بعض الأضواء على هذه النظرية – أو بتعبير أدق – هذه الفكرة نظرا لأنها لم ترق لأن تكون نظرية .

هذا وسوف أستعرض بعض الأقوال لبعض العلماء حول هذه النظرية . يقول آرثر كيث عن نظرية الارتقاء : « إنها العقيدة الأساسية فى المذهب العلمى ، ولم يقل إنها حقيقة علمية . (١)

وقد عرفتها موسوعة علمية بأنها : نظرية قائمة على تفسير بدون براهين . (٢) وقد قال أحد علماء الحياة والأحياء تعليقا على نظرية التطور : « إن هذه النظرية تذكرنا بقصص الجن والسحرة ، عندما يقوم الساحر بقلب إنسان إلى حيوان ، أو حيوان إلى إنسان » (٣) .

وسوف يكون تناولى لهذا الموضوع مشتملا على النقاط التالية :

– معنى التطور فى اللغة .

– التطور عند دارون وأتباعه .

– نظريات التطور عبر التاريخ .

---

(١) انظر : الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة للدكتور يحيى هاشم ص٥٤ دار المعارف .
(٢) المرجع السابق.
(٣) أبحاث فى ضوء العلم الحديث ص١١١ نقلا عن : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٥٨ .

- التطور فى الفكر الشرقى القديم .
- التطور عند اليونان .
- التطور فى الفكر الإسلامى .
- التطور فى العصر الحديث عند الغربيين .
- الفرد والاس .
- تشارلس دارون .
- الدعائم التى بنى عليها دارون نظريته .
- دور اليهود فى نشر نظرية التطور .
- آراء العلماء حول عقيدة دارون .
- نقد الدعائم التى بنى عليها دارون نظريته .
- الداروينية الحديثة .
- نظرية التطور بين القبول والرفض .
- مسألة خلق أبى البشر آدم - عليه السلام - من خلال القرآن .
- دلائل أفضلية الإنسان على كل المخلوقات .
- موقف الكنيسة من نظرية التطور .
- تقويم النظرية .

معنى التطور فى اللغة :

الواقع أن مصطلح التطور من حيث معناه فى اللغة يعد من المصطلحات الحديثة على المعاجم والقواميس العربية . نظرا لأنه لم يرد فى المعاجم القديمة إلا لفظ « طور » وقد ورد فى القرآن الكريم بصيغة الجمع « أطوار » .

والطور فى اللغة التارة ، والمرة ، والحال ، يقال طورا بعد طور ، أى تارة بعد تارة ومرة بعد أخرى وحالا بعد حال . والناس أطوار : أى حالات وأشكال وأخلاق وأفعال شتى .(١)

وقد قال الله – سبحانه وتعالى – فى كتابه العزيز : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا ﴾ (٢) .

أى مالكم لا تخشون لله عقابا وترجون منه ثوابا وقد خلقكم أطوارا أى على أشكال وألوان وأحوال مختلفة . ويراد بالأطوار فى الآية الكريمة المراحل التى يمر بها خلق الإنسان منذ كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة حتى يصير تام الخلق مكتمل التكوين فقد قال الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٣) .

---

(١) انظر : مختار الصحاح للرازى ص٣٩٩ دار الكتاب العربى .
(٢) الآيتان ﴿ ١٣ ، ١٤ ﴾ من سورة نوح – عليه السلام – .
(٣) الآيات ﴿ ١٢ – ١٤ ﴾ من سورة المؤمنون .

وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن مراحل خلق الإنسان : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله شقى أو سعيد » (١) .

بالإضافة إلى ما تقدم فقد قيل إن « أطوار » أى صبيانا ثم شبابا ثم شيوخا وضعفاء ثم أقوياء . وقد قيل « أطوار » أى أنواعا : صحيحا وسقيما وبصيرا وضريرا وغنيا وفقيرا . وقيل « أطوار » اختلافهم فى الأخلاق والأفعال .(٢)

وقد قال الفراء أطوارا : أى خلقا مختلفة متتالية نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما . و« الطور » و« الطوار » ما كان على حذو الشئ أو بحذائه ، ويقال : هذه الدار على طور هذه أى حائطها متصل بحائطها على نسق واحد . و« الطور » أيضا الحد بين الشيئين ، وعدا طوره أى جاوز حده وقدره ، وبلغ أطوريه أى غاية ما يحاوله ، ويقال : ركب فلان الدهر وأطوريه أى طرفيه .(٣)

ومن خلال المعانى المتقدمة لكلمة « طور » اشتقت كلمة « تطور » التى تعنى الانتقال من طورسابق إلى طور لاحق . أو من حال إلى حال تارة بعد تارة . وذلك كما انتقل الإنسان بأمر الله – سبحانه وتعالى – من طور النطفة إلى طور العلقة إلى طور المضغة .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ١٦/١٩٠ وما بعدها كتاب القدر – باب كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه ، والبخارى بلفظ آخر ٤/١٣٥ كتاب بدء الخلق . مطابع الشعب .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٨/٢٩٠ وما بعدها دار الحديث الطبعة الثانية ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٤٢٦ دار القلم .

(٣) انظر لسان العرب لابن منظور مادة طور .

وبناء على ذلك فالتطور يعنى التغير التدريجى والانتقال المتوالى من حال إلى حال فى رحلة قد تنتهى بعد نقلة واحدة فيكون تطور الشئ قد انتقل به من حال سابقة إلى حال لاحقة ثم توقف – إن جاز أن يتوقف التطور – وقد تستمر رحلة التطور عبر عدد متتال من الأطوار والحالات .

و« التطور » يختلف عن « التغير » من حيث إن التطور يعنى التغير مع قيد التقدم والترقى إلى الأعلى والأكمل . أما التغير فيعنى الانتقال من طور إلى طور سواء كان انتقالا إلى الأعلى والأكمل . أو إلى الأدنى والأسفل .

على أنه يوجد من لم يعتبر هذا القيد ولم يضع فرقا بينهما حيث ذهب إلى أن التطور هو التغير سواء أكان إلى الأعلى والأكمل ، أم إلى الأدنى والأسفل . فالتطور بذلك قد يكون انتقالا من طور إلى طور أقل منه كمالا وأدنى منه رقيا .

والتطور قد يكون فى أمور مادية حسية كالتطور فى البنية الجسمية للكائنات الحية ، وتطور الإنسان حين ينتقل من طور النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى أن يصير سويا عند مولده . ثم يتطور ويمر بمراحل بعد ذلك من الطفولة إلى الشباب والقوة ثم إلى الشيخوخة والضعف .

وقد يكون فى أمور عقلية كالأخلاق والسلوك والعلاقات والنظم السائدة فى المجتمعات البشرية .[1]

ما تقدم كان حديثا عن التطور بصفة عامة . أما مصطلح « التطور » فلم يرد إلا عند « أبى الريحان البيرونى » .

---

(١) انظر : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٢١ وما بعدها ، والعقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع للدكتور محمد بيصار ص٣٨ وما بعدها . دار الكتاب اللبنانى بيروت الطبعة الرابعة ١٩٧٣م .

التطور عند دارون وأتباعه :

لاشك أن التطور عند « دارون » وأتباعه يحى منحى آخر يختلف اختلافا كبيرا عما تقدم . فهم يطلقون كلمة « التطور » ويقصدون بها مذهبهم وهو أن الكائنات كلها نباتا وحيوانا وإنسانا قد نشأت عن أصل واحد ، أو عدد محدود من الأصول ثم تفرعت وتطورت إلى تلك الأنواع التى لا تحصى ولهم فى ذلك عدة تعريفات نذكر منها :

١ – التطور يعنى : « نظام التغير والتحول والصيرورة الذى لا يمكن وقفه أو عكسه والذى بمقتضاه تصير الكائنات فى حالة تنوع وتكامل مستمرين » .

٢ – التطور يعنى : « الاعتقاد بأن النباتات والكائنات الحية تكونت وانبثقت عن أشكال سبقتها نتيجة تحول مستمر ، وصيرورة تدريجية متواصلة ، ينتج عنها تغير صور الكائنات الحية وظهور أشكال وأنواع جديدة منها » .

٣ – التطور يعنى افتراض : « أن جميع الكائنات الحية التى تعيش على الأرض قد نشأت من أصل واحد أو بضعة أصول ، وأن التغيرات المختلفة التى حدثت لها قد جعلتها تتحول من كائنات بسيطة التركيب إلى أخرى أكثر تعقيدا » .[1]

من خلال هذه التعريفات السابقة لنظرية التطور لدى دارون وأتباعه يتبين

---

(١) انظر فى هذه التعريفات المعجم الفلسفى ص١٧٥ مجمع اللغة العربية ، نظرية التطور عند مفكرى الإسلام للدكتور محفوظ عزام ص١٨ دار الهداية الطبعة الثانية ، مجلة عالم الفكر ٢٣٦/١٢ نقلا عن : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٢٣ .

لنا أن المراد بالتطور عندهم هو إرجاع الموجودات النباتية والحيوانية ، وكذلك الإنسانية إلى أصل واحد أو عدد محدود من الأصول نشأت على هيئة كائن وحيد الخلية ، ثم ترقى عن طريق التطور حتى وصل إلى الكائن الأكثر سموا وتعقيدا فى الوجود الأرضى وهو الإنسان .

وهم يصورون هذه المسيرة التطورية الافتراضية – من وجود الخلية إلى وجود الإنسان على النحو التالى – تقريبا وباختصار :

كائن وحيد الخلية (كالأميبا) كائنات متعددة الخلايا كالفطريات – كائنات نباتية – نبات يشبه الحيوان (كالهيدرا) – حيوان يشبه النبات (كالمرجان) – حيوانات لا فقارية كالتى تعيش فى القواقع – حيوانات فقارية دنيا (كالزواحف والأسماك والطيور) – حيوانات فقارية أرقى من سابقتها (كالثدييات الدنيا) – القردة الدنيا – القردة العليا التى يطلق بعضها « إنسان الغاب » – الحلقة المفقودة بين النوع الأخير الذى هو القردة العليا والإنسان ولا يزالون يبحثون عنها ويسمون تلك الحلقة : القرد الإنسان أو الإنسان القرد – ثم الإنسان فى نهاية المطاف .

هذا بإيجاز ما يقصده « دارون » وأتباعه بما يسمى التطور العضوى أو التطور الحيوى .[1]

هذا ولنظرية التطور اتجاهان :

الأول : اتجاه مادى طبعى وهذا هو ما يتصل بالكائنات الحية ، وهل يصدق عليها ما قاله أصحاب هذه النظرية ؟ أم أنه حديث خرافة ؟ .

(١) انظر : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٢٣ ، ومذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب ص٩٤ . دار الشروق الطبعة الثامنة ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .

الثانى : عقدى معنوى* ونقصد به علاقة هذه النظرية بالإيمان بالله الخالق – عز وجل – وصلتها بالدين .

وهنا ترد عدة تساؤلات هى هل محتوى النظرية يتفق مع الدين أم يعارض الدين وينقضه ؟ هل كان دارون مؤمنا بالنصرانية ؟ وهل احتفظ بدينه الذى ينص على أن الله – سبحانه وتعالى – هو خالق الوجود بما فيه من جماد ونبات وحيوان وإنسان ؟ أم أنه ترك دينه وراء ظهره وركن إلى الطبيعة وآثر البيئة باعتبارها وحدها هى الموجد والمكون ثم المصنف والمنوع للموجودات ؟ وما مردود النظرية وأثرها على مشاعر الناس ومعتقداتهم ؟ وهل شدت من عضد المؤمنين فى مواجهة الماديين الطبيعين ؟ أم أنها اعتبرت سندا وملجأ وعضدا للملاحدة الماديين القائلين بالطبيعة ولا شئ سواها فى مواجهة المؤمنين ؟

هذه عدة تساؤلات تثيرها هذه النظرية وسوف نحاول الإجابة عنها بحول الله – تعالى – عند نقد النظرية .

نظريات التطور عبر التاريخ :

يعتقد البعض خطأ أن « دارون » أول من قال بنظرية التطور ، أو أن هذه

---

* يلزم كل قائل بالتطور أن يتعرض المسألة الخلق ، لأن التطور بالرغم من أنه من موضوعات العلوم الطبيعية إلا أنه متصل بمسألة خلق الإنسان اتصالا وثيقا ومن هنا تكون له صلة جوهرية بالعقيدة الدينية ، سواء أكان هذا التطور عضويا أم غير عضوى وسواء كانت العقيدة إسلامية أو مسيحية أو يهودية .
انظر : نظرية التطور للدكتور محفوظ عزام ص١٧ .
إلا أن عباس العقاد كان يرى أنه لا يلزم القائلين بالتطور العضوى التعرض لمسألة الخلق والإيمان بالخالق ، بينما يلزم القائلين بالتطور الكونى العام . انظر الإنسان فى القرآن ص٨٠ نقلا عن : نظرية التطور للدكتور محفوظ عزام ص١٨ .

النظرية من اختراعه دون أن يسبقه أحد فى هذا المجال . والحق أن نظرية التطور لها جذور قديمة ضاربة منذ فجر التاريخ امتدت على فترات متعاقبة يؤكد ذلك ما ذكره الفيلسوف الدانمركى « هو فدينج » حيث قال عنها إنها : « من أقدم تكهنات الفكر الإنسانى » (١) .

وقد بدأ ظهور فكرة التطور فى الفكر الشرقى القديم ثم تلاه بظهور الفلسفة اليونانية وبصفة خاصة عند بعض الفلاسفة الطبيعيين الأوائل والمتأخرين منهم . ويعد الماديون الذين ظهروا فى القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر امتدادا لهم .

التطور فى الفكر الشرقى القديم :

لقد ظهرت فكرة التطور عند الشرقيين وبخاصة فى مصر وأرض ما بين النهرين وذلك قبل الميلاد بأربعة آلاف عام ثم عبرت وانطلقت إلى بلاد بلاد الغرب وأثرت فى الفكر الغربى تأثيرا كبيرا سواء القديم منه أو الحديث .

ولقد كان للمنطقتين مكانا كبيرا إذ إن كلا منهما كانت لها ثقافة خاصة بها مميزة لها بالرغم من أنهما يجمعهما حوض نهر عظيم هو نهر النيل ودجلة والفرات .

وقد نشأ فى هاتين المنطقتين ثقافة مختلفة نظرا للموقع الجغرافى ، فإذا نظرنا مثلا إلى منطقة ما بين النهرين نجد أنه « قد نشأ فى نفوس القوم ميل إلى الاعتقاد بما نسميه اليوم « نظرية الكوارث » أى الاعتقاد بالرأى القائل بأن العالم

(١) نظرية التطور عند مفكرى الإسلام ص١٩١

يتـعـرض من حين لآخـر إلى كـوارث هائلة تقوض أركـانـه وتبـيـد الأحـيـاء من صفحته ، ثم تعود فى كل مرة بعض القوى الرحيمة إلى تعميره من جديد ، (١) .

أما بالنسبة لمصر فإن الأمر كان مختلفا تماما حيث إن : « القوم هنا وإن قضت تعاليم أديانهم بأن العالم وليد القدرة الخالقة لأكثر من إله واحد ، إلا أن الأحوال الهادئة المستقرة التى أوجدها انتظام النيل فى ارتفاع مياهه وهبوطها ، قد أوحت إليهم - بلا شك - بفكرة أكثر أمنا وسلاما وهى عقيدة الاستمرار فى منشأ الكائنات وأصولها ، فالزارع المصرى كان يرى كل عام العلاقة الثابتة بين فصول السنة ومواسم الحصاد ، فلابد أنه كان يتصور أنه هو نفسه وجميع الكائنات المحيطة به ظهرت فى ذلك المنوال بطريقة منظمة منسقة » (٢) .

هذا ولقد نزل بمصر الفيلسوف الإغريقى « فيثاغورث ٥٧٢ - ٤٩٧ قبل الميلاد » وعاش فيها ما يقرب من عشرين عاما ، ولما عاد إلى موطنه الأصلى « اليونانى » كان قد « نقل إليه فكرة الاستمرارية أو الاطرادية » وهما الاسمان اللذان أطلقهما الناس فيما بعد على تلك الأفكار الأولى المصريين القدماء » (٣) .

وهكذا انتقلت هذه العقيدة المصرية فى التطور إلى أرسطو حيث نشأ هذه الفكرة - التطور التدريجى للكائنات - فى مصر ثم نمت شيئا فشيئا وظهرت فى الفكر اليونانى الإغريقى التى تسمى الآن بفكرة التطور .

---

(١) نظرات فى تطور الكائنات الحية لجراهام كانون ص١٢ ترجمة د / عبد الحافظ حلمى الأنجلو المصرية .

(٢) المرجع السابق ص١٢ .

(٣) المرجع السابق ص١٢ وما بعدها .

من هنا نجـد أن أقـدم النظريـات فـى التطـور هى النظريـات الشـرقـيـة المتلثـة فى :

١ – نظرية الكوارث التى ظهرت فى منطقة ما بين النهرين .

٢ – نظرية التطور التـدريجى التى ظهـرت فى مـصـر واسـتـمـرت عنـد اليونـان .

التطور عند اليونان :

١ – انكسمندر :

لقد كان لانكسمندر رأى فى نشأة الحياة وتطورها فوق الأرض يشبه نظرية التطور التى نسبت إلى « دارون » وغيره من أصحاب مذهب التطور .

حيث رأى أن الأرض كانت سائلا ثم أخذت تتجمد شيئا فشيئا وعن طريق الحرارة اللافحـة التى كانت تنصب عليها تصاعد هذا السائل بخارا مكونا طبقات الهواء ، وعند التقاء هذه الحرارة ببـرودة الأرض تكونت الكائنات الحـية وتولدت فى الرطوبة بعد التبخر أى فى طين البحر وهو عبارة عن مزيج من التراب والماء والهواء .

وقد كانت الأحياء فى بدء نشأتها منحطة ثم أخذت فى التطور شيئا فشيئا ، وسـارت فى طريق التطور إلى درجـات أعلى فـأعلى عن طريق الدافع الفطرى الغريزى للملاءمة بين أنفسـها والبيئة الخارجـية . فقد كانت فى الأصل سمكا مـغطى بقـشـر شـائك يعـيش فى الماء وعندمـا اكتـمل نموها انتـقلت إلى الأرض ونفضت مـا عليـها من القشر وتكونت أعضاؤها وصار على النحو الموجود عليه الآن .

ولقد ورد فى قضية الفلسفة اليونانية إزاء هـذا الموضوع أن الإنسان كان : « فى أول مـراحل حياتـه سمكة تعيش فى الماء ، فلما انحسر الماء بفـعل التبـخر اضطرت الأسماك المتخلفة إلى الملاءمة بينهما وبين البيئة ، فانقلبت زعانفها على مر الزمن أعضاء صالحة للحركة على الأرض اليابسة ، وهى ما ترى من أرجل وأيد » [1] .

ويذكـر الدكـتـور يوسف كـرم أن الإنسان فى بدايتـه لم يكن على الصـورة الإنسانية المعروفة الآن * وإنما انحدر من حيوانات مائية تخالفه فى النوع حملته فى بطنها زمنا طويلا إلى أن نمت قواه وتم تكوينه ، فاستطاع أن يعيش على سطح الأرض ويحفظ حياته بنفسه .[2]

ولاشك فى أن هذا الموقف مـخالف للشرائع ، وسوف يتضح ذلك عند الرد على هؤلاء ببيان موقف الإسلام من مسألة الخلق .

ويرى الدكتور فرج الله عبد البارى أن نظرة انكسمندر كانت تأملية فلسفية لم تستند إلى أساس علمى تجـريبى ، لأن الفلاسفة المحـدثين الذين أيدوا نظرية التطور بأدلة علمية قد ظهر لهم عدم كفايتها بل والتزوير فيها أيضا » [3] .

---

(١) أحمد أمين وزكى نجيب محمود ص١٧ لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة السابعة ١٩٧٠م ، دروس فى تاريخ الفلسفة للدكـتـور إبراهيم مـدكـور ويوسف كـرم ص٣ طبـعـة ١٩٥٤م .

* المراد بهذا أنه لم ينشأ طفلا كما نراه الآن عاجزا عن توفير أسباب معاشه وإلا لانفرض .

(٢) انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية ص١٥ لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة السادسة .

(٣) بحث فى حولية كلية أصول الدين والدعوة بطنطا العدد الثالث ١٩٩١م تحت عنوان النزعة الإلحادية فى النظريات العلمية الداروينية .

٢ - انكساغوراس :

يرى هذا الفيلسوف أن أصل الحياة عبارة عن جراثيم كانت تسبح فى الحجو فساقتها مياه الأمطار إلى الأرض حيث تكاثرت وتنوعت على الوجه الذى نراه. [١] رعلل رقى الحيوان على النبات بأنه طليق غير مرتبط بالأرض ، ورقى الإنسان على الحيوان بأن له يدين وأن اليد خير الآلات ونموذجها دون أن يضيف أى أثر للعقل الذى قال به علة محركة منظمة .[٢]

ولاشك أن قول انكساغوراس بالتطور كان قائما على التخمين والمشاهدات الساذجة .[٣]

٣ - أنبا ذوقليس :

لقد ذهب إلى القول بفلسفة طبيعية مؤداها أن أصل الكون عبارة عن عناصر أربعة هى : الماء والهواء والنار والتراب وهذه العناصر تجتمع وتفترق بفعل قوتين هما المحبة والكراهية . وتتكون الأجسام الحية فتجتمع العناصر بمقادير معينة بفعل المحبة ، فتنبت فى الأرض رؤوس بدون رقاب ، وتظهر أذرع مفصولة عن الأكتاف ، وعيون مستقلة عن الحياة وتتفاوت هذه الأمزجة اتفاقا على أنحاء متعددة فتكون منها المسوخ ، وتكون المركبات الصالحة ، فتتقرض الأولى وتبقى الأخرى فالحياة تعلل بأسباب آلية هى اجتماع العناصر وتأثير البيئة ، [٤] .

(١) انظر : قصة الفلسفة اليونانية ص٦١ .
(٢) انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية ص٤٣ .
(٣) انظر : حولية كلية أصول الدين والدعوة بطنطا العدد الثالث ص٣٤٤ .
(٤) تاريخ الفلسفة اليونانية ص٣٦ .

ولا شك فى أن رأيه قريب من نظرية التطور عند « دارون » حيث يدعى أن البقاء يكون للأصلح من خلال بقاء الأصلح من الأعضاء والأجسام .

٤ - أرسطو :

يرى أرسطو أن العالم متدرج فى الرقى بعضه أرقى من بعض فى الوجود وفى القيمة ، وهو فى هذا ينظر إلى العالم نظرة نشوء وارتقاء ، ولكن ليس ذلك بمعنى تحول النوع من شئ إلى آخر أرقى منه بمرور الزمان فهذا النظر حديث ، لأن أرسطو يرى أن الأجناس والأنواع أزليـة أبدية ، فـأفـراد الإنسـان يولدون ويموتون ، ولكن النوع الإنسانى أزلى أبدى ، كـذلك الشـأن فى جـمـيع النبـات والحيوان ، وإذا كان الأمر كذلك فأنه لا يكون هناك تحول من نوع إلى نوع بفعل الزمان كما هو مذهب « دارون » وإنما الترقى عند أرسطو ترق منطقى أو ترق فى الفكرة ، فالأدنى يحمل بذور الأعلى بالقوة ، فالإنسان هو القرد مثليا ، والأعلى يحمل بذور الأدنى فعليا ، فالإنسان فيه ما فى القرد وزيادة ... فالعالم كله سلسلة أو سلم ذو درجات ، ولكن لا تتحول فيه الأنواع على مرور الزمن إلى أنواع أرقى .[١]

والقـول بالتطور والترقى عند أرسطو مـرجـعـه إلى نظريتـه فى الهيـولى والصورة حيث إنهما أساس فلسفته الميتافيزيقية وبهما شرح العالم ، فقد « رأى أن الهيولى والصورة لا ينفصلان فلا صورة من غير هيولى ، ولا هيولى من غير صورة ، وكل موجود فى الخارج يكون منهما ، وهما ليسا منفصلين إلا فى الذهن ونحن نفكر فيهما منفصلين لتفهمهما فقط » [٢] .

---

(١) انظر : قصة الفلسفة اليونانية ص١٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص١٦٢ .

بناء على هذه النظرية رأى أرسطو أن العالم عبارة عن « سلسلة ترق للمادة من صورة إلى صورة أرقى منها ، فالعالم درجات بعضها فوق بعض ، فما كان من الأشياء فى منزلة عالية يكون قد غلبت صورته مادته ، وماكان منها فى درجة سافلة يكون قد غلبت مادته صورته ، حتى إذا وصلنا إلى نهاية الحضيض وصلنا إلى مادة لا صورة لها وإذا وصلنا إلى الذروة العليا وجدنا صورة لا مادة لها ، ولكن هاتين النهايتين ليستا إلا معان مجردة لا وجود لها فى الخارج ، لأن الذى فى الخارج ... ليس إلا مادة بصورة ، والعالم يسير فى ارتقاء مستمر والحركة والتغير مستمران ينقلان ما فيه من درجة إلى أعلى منها ، تجذبه نحوها قوة الغاية . هذه الغاية وإن شئت نقل الذروة العليا للموجودات ، وإن شئت فقل الصورة المجردة التى يسميها أرسطو « الله » [1] .

ومما لا شك فيـه أن تدرج العالم على النحو الذى أشار إليـه أرسطو كـان مقدمة لفكرة التطور أو النشوء والارتقاء التى ظهرت فى العصر الحديث على صورة مـذهب قال به المحدثون وأشهرهم « دارون » الإنجليزى و« لامارك » الفرنسى ، إلا أن هناك فرقا جوهريا بين مذهب أرسطو وفكرة التطور الحديثة « فأصحاب هذه الفكرة يقولون بتحول الأنواع أى تحول نوع من الأحياء إلى نوع آخر بسبب العوامل الطبيعية التى أهمها عامل الوراثة كعامل داخلى وعامل الانتخاب الطبيعى كعامل خارجى ، وليس الأمر كذلك عند أرسطو فإن الترقى عنده ترق منطقى أو ترق فى الفكرة بمعنى أن الأدنى يحمل بذور الأعلى بالقوة ، وأن الأرقى يحمل صفات الأدنى بالفعل ففيه ما فى الأدنى وزيادة ، وبذلك تكون الأنواع عند أرسطو ثابتة ومستقلة . لكل منها صفاته المميزة . ومن أوضح الأدلة

(١) المرجع السابق ص١٦٤ وما بعدها

على ذلك أن أرسطو يرى النوع الإنسانى وكذا النبات والحيوان أزلى أبدى فلا يتأتى مع هذا القول بالتحول والترقى الفعل الخارجى كما يقول أصحاب مذهب النشوء والارتقاء الحديث إذ يقضى مذهبهم بأن الإنسان متأخر فى وجوده عن الحيوان المتأخر أيضا عن النبات ، [1] .

هذا ولقد استفاد أرسطو من الفكر الشرقى القديم فى مسألة التطور .

التطور فى الفكر الإسلامى :

لقد ظهرت فكرة التطور فى الفكر الإسلامى عند عدد من المفكرين والفلاسفة الإسلاميين لدرجة أن بعض الباحثين يربط بين نظرية التطور عند دارون وعند بعض الفلاسفة والمفكرين الإسلاميين كإخوان الصفا وابن خلدون ومسكويه* وأبى الريحان البيرونى والفارابى بل إنهم يقولون إنها هى الأساس

---

(١) أضواء على الفلسفة اليونانية للدكتور صلاح عبد العليم ص١٦٢ دار الطباعة المحمدية .

* خطأ شائع عند البعض حيث يقولون ابن مسكويه والصحيح مسكويه ، وذلك نظرا لأن بعض القدماء أمثال الشهرزورى فى مخطوطه « تاريخ حكماء الإسلام » والخوانسارى فى «روضاته » قد توهم إضافة لفظ ابن قبل لقب هذا الفيلسوف الذى اشتهر به وهو مسكويه بحيث يصبح هذا اللقب اسما لجده أى أنه « أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه » .
والصحيح أن مسكويه لقب له وذلك لأن القائلين بان مسكويه قلة كالخوانسارى والشهرروزى . بينما أكد جمهور العلماء أن مسكويه لقب له وهم التوحيدى فى « الإقناع والمؤانسة » والثعلبى فى « تتمة اليتمية » والخوارزمى فى « رسائله » وحاجى خليفة فى « كشف الظنون » ويؤيد ذلك وجود ست رسائل لمسكويه بالآستانة . هذابالإضافة إلى أن الذين دونوا هذا اللقب وقالوا بمسكويه كانوا من العلماء الذين عاشوا فى زمانه ، وكانوا من رفاقه وأصحابه وهم يعرفونه ويجتمعون به ويراسلونه .
انظر : ابن مسكويه فلسفته الأخلاقية ومصادرها للدكتور عبد العزيز عزت ص٨١ وما بعدها . مصطفى البابى الحلبى الطبعة الأولى ١٩٤٦م ، ومقدمة تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص١٤ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت الطبعة الثانية

لنظرية التطور عند دارون أو أن هناك وجوه شبه بينهما لذا يقول العلامة « درابر » في هذا الإطار : « تأخذنا الدهشة أحيانا عندما ننظر في كتب العرب ، فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد إلا في زماننا كالرأى الجديد في ترقى الكائنات العضوية وتدرجها في كمال أنواعها . فإن هذا الرأى مما يُعلّمه العرب في مدارسهم ، وكانوا يذهبون به إلى أبعد مما ذهبنا ، فكان عندهم عاماً يشمل الكائنات العضوية والمعادن . والأصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن في أشكالها » [1] .

هذا ولقد أورد إسماعيل مظهر عدة فقرات من نصوص الإخوان الصفا ومسكويه والجاحظ وابن خلدون لكى يستنتج منها في نهاية الأمر أن هؤلاء ذهبوا إلى نشوء بعض الأحياء من بعض ، وأنهم ذكروا كثيرا من المبادئ التى تعتبر الآن من الدعامات الأولية في مذهب النشوء عامة ، كما أشاروا إلى أثر الطبيعة في الأحياء .[2]

لكن معنى التطور في الفكر الإسلامى وعند المفكرين الإسلاميين يختلف اختلافا جوهريا عما يماثله عند المفكرين الغربيين وبصفة خاصة « دارون » ومن نهج نهجه .

فالتطور عند الإسلاميين لا يعنى انبثاق الموجودات بعضها عن بعض أو نشوءها عن أصل واحد أو بضعة أصول مشتركة . وإنما التطور عند الإسلاميين يعنى نوعا من الترتيب والتصنيف بين الموجودات من زمان الوجود ورتبته وأفضليته ثم غائيته .

---

(١) حولية كلية أصول الدين بالقاهرة العدد السادس ١٩٨٩م بحث للدكتور عبد المعطى بيومى ص٣٦ تحت عنوان « نظرية التطور بين دارون والمفكرين الإسلاميين » .

(٢) انظر : مقدمة أصل الأنواع ص٥ وما بعدها مكتبة النهضة بيروت وبغداد بدون تاريخ .

من حيث التصنيف والترتيب الزمانى ، فقد وجد الماء قبل التراب ، والبحر قبل البر ، والنبات قبل الحيوان ، والحيوانات الدنيا قبل العليا . ثم تـوج الوجود الأرضى بوجود الإنسان وهذا التدرج فى الوجود لا يعنى انبثاق اللاحق عن السابق ، ولا نشوءه وتطوره عنه ، ولا يعنى بالضرورة علاقة عضوية بين الاثنين . وإنما كل خلق مستقل عن الآخر ، وناشئ نشوءا مستقلا بعلم الله – عز وجل – وقدرته وحكمته . وهذا لا يمنع التأثير والتأثر بين الاثنين . مثل كون وجود السابق ضروريا لوجود اللاحق ، أو كون اللاحق لا يستغنى فى وجوده عن السابق ... ومن هنا يأتى الحديث عن الأفضلية والغائية بين مراتب الموجودات .

فالبحر ضرورى لوجود البر ، والماء ضرورى لوجود النبات ، والنبات ضرورى لوجود الحيوان ، والنبات والحيوان كلاهما ضروريان لوجود الإنسان . فالإنسان أفضل الموجودات الأرضية . وكل شئ فى الوجود الأرضى إنما وجد من أجله ، والشئ الذى يوجد من أجل شئ آخر يكون سابقا له فى الوجود ومتقدما عليه .[1]

وقد ورد فى رسائل إخوان الصفا ما يفيد هذا المعنى : ومن ثم كانت مراتب الموجودات من حيث الزمان هكذا ... فالماء قبل التراب ، والبحر قبل البر ، والنبات قبل الحيوان ، والحيوان متقدم فى الوجود على الإنسان بالزمان ، لأنه له ولأجله وكل شئ هو من أجل شئ آخر فهو متقدم عليه فى الوجود ، [2] .

---

(١) انظر : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٢٦ .

(٢) انظر : رسائل إخوان الصفا ٢/١٨٠ وما بعدها دار صادر بيروت بدون تاريخ .

رأى المفكرين الإسلاميين :

هذا وسوف نعرض الآن لرأى أشهر القائلين بشئ قد يقترب من القول بنظرية التطور وهم الفارابى ومسكويه وإخوان الصفا وابن خلدون .

١ - الفارابى :

لقد وضع الفارابى تصوره عن صدور الموجودات كلها عن الله - عز وجل - بحيث يفيض كل موجود بما دونه ابتداء من الموجود الأعلى إلى أدنى الموجودات ، بحيث يمكن أن نرتب سلسلة الموجودات من أعلاها إلى أدناها متصلا بعضها ببعض ، وصادرا بعضها عن بعض باستثناء الموجود الأول وهو الله الذى وجوده من ذاته وعنه تصدر جميع الموجودات من أعلاها وهو العقل الأول إلى أدناها وهى الموجودات الهيولانية فيما عرف بنظرية العقول العشرة .[١]

يقول الفارابى : « فالأول ليس وجوده لأجل غيره » [٢] ثم يتحدث بعد ذلك عن مراتب الموجودات ويبين مراتب أفضليتها وترتيب وجودها معا فيقول : « وترتيب هذه الموجودات هو أن تقدم أولا أخسها ثم الأفضل فالأفضل إلى أن تنتهى إلى أفضلها الذى لا أفضل منه ، فأخسها المادة الأولى المشتركة والأفضل منها الأسطقسات (الماء والتراب والهواء والنار) ثم المعدنية ثم النبات ثم الحيوان غير الناطق ثم الحيوان الناطق وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه » [٢] .

---

(١) انظر : آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ص١٧ وما بعدها مطبعة النيل بمصر - الطبعة الأولى .

(٢) المرجع السابق ص١٨

(٣) المرجع السابق ص٢٧ وما بعدها .

من هنا نكاد نلمح بعض عناصر التطور عند محاولة الفارابى لتفسير كيفية نشوء الموجودات .

٢ - مسكويه :

عند حديث مسكويه عن الأجسام الطبيعية بين بوضوح أن هذه الأجسام الطبيعية مكونة من مادة واحدة إلا أنها تتفاضل فيما بينها بقبول الصور والآثار الشريفة ، فكلما قبل الجسم صورة شريفة فإنه يرتفع بهذه الصورة إلى أفق المرتبة التى تصل إلى حدود جسم آخر فى صورة أرقى .

يقول مسكويه فى هذا الإطار : « إن الأجسام الطبيعية كلها تشترك فى الحد الذى يعمها . ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة والصور التى تحدث فيها . فإن الجماد منها إذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الأولى التى لا تقبل تلك الصورة .

فإذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد ، وتلك الزيادة هى الاغتذاء والنمو ، والامتداد فى الأقطار ، واجتذاب ما يوافقه من الأرض والماء ، وترك ما لا يوافقه ونفض الفضول التى تتولدفيه من غذائه عن جسمه بالصموغ . وهذه هى الأشياء التى ينفصل بها النبات من الجماد ، وهى حالة زائدة على الجسمية التى حددناها وكانت حاصلة فى الجماد » .[١]

وهكذا يمضى مسكويه فى حديثه عن أفضلية البعض على البعض الآخر فى النباتات والحيوانات ، ويرى أن الحيوان لا يزال يرتقى حتى يقرب من أفق

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص٧٥ .

الإنسان بدليل قبوله التأديب حتى إن بعض الحيوانات يحاكى الإنسان ويتشبه به من غير تعليم كالقردة مثلا .

يقول مسكويه : « وهذه غاية أفق الحيوان التى إن تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها عن أفقه ، وصار فى أفق الإنسان الذى يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التى يستعملها والصور التى تلائمها » .(١)

ثم يتحدث مسكويه عن ترقى الإنسان وأنه يظل يرتقى حتى يصل إلى أفق أعلى وهى مرتبة الملائكة .

يقول مسكويه فى هذا الشأن : « وإلى هذا الموضع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله – عز وجل – بالمحسوسات ، ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل حتى واقتنائها بالإرادة والسعى والاجتهاد ... حتى يصل إلى آخر أفقه ، فإذا صار إلى آخر أفقه اتصل بأول أفق الملائكة ، وهذا أعلى مرتبة الإنسان وعندها تتأحذ الموجودات ويتصل أولها بآخرها » .(٢)

مما تقدم نرى أن مسكويه يتفق مع الفارابى فى القول بأن الطبيعة لها فعل فى عملية الترقى مع اختلاف بينهما . ومع ذلك فكلاهما يتفق فى أن الله – عز وجل – وكل الطبيعة أمر المحسوسات وهذا لا يعنى أن الطبيعة تصدر عنها هذه الأفعال عن طريق الصدفة والعشوائية كما ذهب « دارون » والتطوريين المحدثين .

---

(١) المرجع السابق ص٧٨ .
(٢) المرجع السابق ص٧٨ .

٣ - إخوان الصفا :

لا يختلف فكر إخوان الصفا عما قرره مسكويه فى مسألة التطور حيث يقولون إن : « المعادن والنبات والحيوان لها نظام وترتيب متصل أواخرها بأوائلها ... فالمعادن متصل أولها بالتراب وآخرها بالنبات ، والنبات أيضا متصل آخره بالحيوان ، والحيوان متصل آخره بالإنسان ، والإنسان متصل آخره بالملائكة ، والملائكة أيضا لها مراتب ومقامات متصلة أواخرها بأوائها » .(١)

٤ - ابن خلدون :

لقد سار ابن خلدون على نفس النهج الذى سار عليه إخوان الصفا ، ففى البداية يؤكد على ترابط الوجود واتصال بعضه ببعض وأن المخلوقات كلها تسير وفق نظام محكم .

يقول ابن خلدون : « اعلم أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ، واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لا تنقضى عجائبه فى ذلك ولا تنتهى غاياته » .(٢)

ثم يكرر ابن خلدون ما قاله مسكويه وإخوان الصفا حيث يقول : « انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ، ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج وآخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له ،

---

(١) رسائل إخوان الصفا ٤/٢٧٦ .
(٢) المقدمة ص٨٨ طبعة دار الشعب .

وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان ، مثل الحلزون والصدف ولو يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط » .[١]

ولعل الجديد الذى حاول ابن خلدون أن يضيفه هو تفسيره لمعنى الاتصال [٢] الذى أشار إليه من قبل إخوان الصفا ومسكويه . حيث قال : « ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر كل أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير إلى أول أفق الذى بعده » .[٣]

فالاتصال المقصود هو مجرد الاستعداد عند المخلوق المستقل الذى جاء فى نهاية سلسلة الجنس والنوع . فالنخل والكرم الذين هما أرقى أنواع النبات بالنفس مستعد بالاستعداد الغريب الذى هو النفس لا التكوين العضوى أن يصير أول أفق الحيوان وهو الحلزون أى أن المخلوقين متشابهان بالنفس .

ولا يوجد فى عبارة ابن خلدون أو إخوان الصفا أو مسكويه ما يشير إلى انقلاب النخل إلى حيوان الحلزون أو انقلاب القرد الذى هو أرقى أنواع الحيوان إلى إنسان ، فالاستعداد شئ والانقلاب الفعلى شئ آخر .[٤]

وهكذا يتضح أن « نظرية التطور » التى أثبت البحث العلمى القائم على الحقائق الموضوعية بعيدا عن الخيال والوهم ، أنها لم ترق إلى مستوى النظرية ، بل إنها مجرد « فرض » خيالى توهمى ثبت بطلانه بكل المقاييس . فالقول بالتطور له جذور قديمة وعميقة تضرب بأصولها إلى فلاسفة اليونان ومن قبلهم

---

(١) المرجع السابق ص٨٨ وما بعدها .
(٢) انظر : حولية كلية أصول الدين بالقاهرة العدد السادس ١٩٨٩م .
(٣) المقدمة ص٨٩ .
(٤) انظر : حولية كلية أصول الدين بالقاهرة ص٤٣٨ وما بعدها .

ما ظهر فى البيئة الشرقية واستفاد منه اليونان كما ذكرنا وذلك ليس أمرا بعيد الوقوع ، لأن الباعث على القول بالتطور مساوق لوجود الإنسان ، بل وسابق على وجوده . نعنى بذلك التشابه الكبير بين الموجودات بأنواعها المختلفة بعامة ، وبين بعضها والإنسان بشكل خاص فى البنية الجسمية من بعض وجوهها ، مما يدفع بالبعض – ممن فقد الإيمان بالله القادر الحكيم ، أو كان ضعيف الصلة به – سبحانه – أو كان على دين باطل – إلى القول بأن الحياة نشأت نشوءا آليا ، وأن الأحياء تطور بعضهم عن بعض صعودا حتى الإنسان . وكان « دارون » هو الحلقة الأخيرة من القائلين بذلك . لكن مذهبه اختلف عن السابقين .[1]

التطور فى العصر الحديث عن الغربيين :

لم يكن « دارون » أول من قال بالتطور ، ولا أول من وضع نظرية فيه . فقد سبقه إلى ذلك كثيرين من الفلاسفة الطبيعين الماديين ، ولحقه أيضا أعداد من هؤلاء . ومن اللاحقين له منهم من سار على نهجه وخطاه ومنهم من خالفه . ولقد كان انتشار نظرية « دارون » راجعا إلى بعض ممن جاءوا بعده والذين أضافوا إليها الكثير من فكرهم وآرائهم . هذا وسوف نتعرض لمن جاءوا قبله فمهدوا الطريق إلى نظريته فى التطور .

١ – ديدرو (١٧١٣ – ١٧٨٤م) :

فيلسوف فرنسى مادى النزعة رفض جميع المذاهب الميتافيزيقية وأنكر الوحى المسيحى بوجه خاص واعتنق الإلحاد . وقد نشر كتبا إلحادية تدرج فيها من المذهب الطبيعى القائل بوجود الله والمنكر للعناية الإلهية إلى القول بأن المادة

(١) انظر : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٢٨ وما بعدها .

هى التى أوجدت نفسها دون حاجة إلى خالق ، وأن الأحياء تتطور ابتداء من خلية تحدثها المادة الحية بحيث تحدث الأعضاء الحاجات ، وتحدث الحاجات الأعضاء فهو بناء على ذلك ينقل هذه النظرية نقلا دون أن يدعمها بحجج علمية جديدة .(١)

٢ - إراسم دارون (١٧٣١ - ١٨٠٢م) :

هو جد « تشارلس دارون » لأبيه . كان طبيبا وعالما طبيعيا ، تأثر ببعض الفلسفات الطبيعية السابقة عليه . وذهب إلى أن الصفات التى لدى الحيوان والإنسان إنما تكتسب عن طريق المواءمة مع البيئة وبتأثيرها . وقد قال بقانون التنازع من أجل البقاء الذى قال به « دارون » بعد ذلك ، وقال أن الصفات المكتسبة نتيجة ملاءمة البيئة تنتقل من الأصل إلى الفرع عن طريق الوراثة . وهذا من القوانين التى قال بها « دارون » الحفيد بعد ذلك .(٢)

٣ - لامارك (١٧٤٤ - ١٨٢٩م) :

لقد قام لامارك بوضع الحجر الأساسى لنظرية التطور قبل ظهور نظرية دارون بأكثر من خمسين سنة * . ولد لأبويين فقيرين والتحق بالجندية وحارب

---

(١) انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم ص١٩٠ وما بعدها ، الموسوعة الفلسفية المختصرة ص١٣٨ .

(٢) انظر : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٢٧ ، وتاريخ الفلسفة الحديثة ص١٥٧ .

* إلا أنه لسوء طالع لامارك أن قيض الله له عالما آخر من بنى جلدته « كوفييه » (١٧٦٩ - ١٨٣٢م) سخر منه وسفه آراءه ، وتمادى فى التشهير به فلجأ إلى القضاء الفرنسى . ولم يكن « كوفييه » هينا قليل الشأن فقد كان عالما مبرزا فى التشريح والحفريات إلى جانب كونه خطيبا مفوها وكاتبا لامعا وذا نفوذ وجاه ومن ثم نسيت فرنسا أو تناست آراء لامارك -

الألمان وبعد تسريحه من الجيش انتسب إلى الجامعة واستهوته دراسة الموسيقى والطب والعلوم ، وكان يسكن فى حجرة متواضعة بالحى اللاتينى وتعرف آنذاك على « جان جاك روسو » وتأثر به .(١)

وقد بدأ حياته العملية بدراسات فى الفلك والجيولوجيا ثم عين أستاذا لعلم الحيوانات اللافقارية ، وبدا له أن الحيوانات من الممكن أن تكون قد نشأت عن أصل واحد فى حلقات متصاعدة ، وأنها قد تكون بدأت بهذه الحيوانات اللافقارية ثم تدرجت إلى أعلى ، وصرح بذلك فى خطبة افتتاح دروسه عام ١٨٠٠م . وقد قام بشرح نظريته عن أصل الأنواع الحيوانية فى كتابه « فلسفة الحيوان » وكان ذلك عام ١٨٠٩م وفسر فيه تحول الأنواع بعضها من بعض .(٢)

وانتهى من ذلك إلى تقرير عدة مبادئ فى التطور من أهمها :

١ – تغيير ظروف البيئة المحيطة بالحيوان يؤدى إلى تغيير الأجهزة العضوية فيه .

٢ – الحاجات الناجمة عن هذا التغيير تؤدى إلى خلق أعضاء ملائمة .

= وتعاليمه فى التطور . ولقد كان « لجوفرى سان هيلير » دور فى مناصرة وتأييد ومؤازرة « لامارك » فى أزمته مع « كوفييه » .
إلا أن لامارك لم يقدر حق قدره إلا بعد موته بثمانين عاما حين قيض الله للفرنسيين « الفريد جيار » (١٨٤٦ – ١٩٠٨م) وكان أستاذا حديث السن من جامعة « ليل » دعته بلدية باريس لإلقاء سلسلة من المحاضرات العامة فى السوربون فى موضوع التطور فكان من أقوى أنصار المذهب اللاماركى . انظر : قصة التطور للدكتور أنور عبد العليم ص٣٨ وما بعدها .

(١) انظر : قصة التطور للدكتور أنور عبد العليم ص٣٨ .

(٢) انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٠٠ .

٣ – الأعضاء والتراكيب فى الحيوان تقوى وتتحسن بفضل تقوية استعمالها وتضمر بسبب قلة استعمالها أو ضعفه .

٤ – بتوالى هذه الأجيال تصبح هذه التغيرات وراثية .(١)

وقد بين أن البيئة لها دخل كبير فى الاختلافات بين الحيوانات بعضها وبعض .

وقد ضرب أمثلة على ذلك منها أن : الحيوان الفقرى به عينان موضوعتان الواحدة بإزاء الأخرى وأسنان وأرجل . بيد أن فى هذا النموذج أحياء كثيرة نرى الأعضاء فيها موزعة توزيعا آخر أو ضامرة أو معدومة بالمرة . فهذه الاختلافات الطارئة على النموذج وليد ة ظروف أفسدته ، أو وليدة تطور يرجع إلى البيئة بتربتها وغذائها ومناخها تولد فى الحيوان حاجات مختلفة فيبذل مجهودا لإرضاء حاجاته ، وينتهى مجهوده المتصل إلى تعديل الأعضاء ، بل إلى نقلها من موضع إلى آخر من جسمه إذ أن استخدام العضو ينميه ، وعدم استخدامه يهزله أو يضمره بالتدريج ، والوراثة تنقل العضو على حاله من النموأو الهزال أو الضمور .(٢)

وهذا يفسر لنا مثلا عدم توازى عينى السمك المسطح فقد اضطرته عاداته إلى السباحة على جانبيه المسطحين ... وهو فى هذا الوضع يتلقى من الضوء فى أعلى أكثر مما يتلقى فى أسفل ، ولما كان بحاجة لإدامة الانتباه إلى ما فوقه ، فقد

---

(١) انظر : موسوعة الفلسفة للدكتور عبد الرحمن بدوى ٣٤٨/٢ ، وتاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٠٠ .

(٢) انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٠٠ وما بعدها .

اضطرت هذه الحاجة إحدى العينين إلى الانتقال والحلول فى المكان الغريب المعروف ... وقد فطن إلى تنازع البقاء والانتخاب الطبعى فلاحظ أن القوى من الحيوان والأقوى سلاحا يفترس الضعيف ، ولكنه لم يتوسع فى هذه الفكرة ولم يعرها مثل ما سيعيرها دارون من أهمية كبرى ، .(١)

هذا ولعل من أشهر الأمثلة التى ذكرها لامارك تأييدا لرأيه واعتمادا على البيئة هو مثال عنق الزرافة* حيث أغرى الطول غير العادى إلى أنها كانت دائما تمد عنقها للحصول على أوراق الأشجار العالية ، فحدث ازدياد فى الطول لفقرات العنق تدريجيا . ثم ورث زراف الأجيال التالية هذا الطول حيث وصل جنس الزراف كله إلى ما هو عليه الآن من أعناق طويلة .(٢)

هذا والتطور الذى يعتقده لامارك ليس عاما يضم المادة والكون والأحياء

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٠٠ وما بعدها ، الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة للدكتور يحيى هاشم فرغل ص٢٤ وما بعدها .

* لقد اختلف لامارك مع دارون فى تفسير التطور فلامارك لا يعتقد بالصدفة والحظ ، ولا بمبدأ الانتخاب الطبعى بالشكل الذى ارتآه دارون واعتمد على البيئة فقط فى تفسير كل شئ . ولبيان اختلاف وجهتى النظر بين الاثنين فإننا نجد أن المثال الذى استخدمه كل منهما هو علة طول الرقبة فى الزرافة فبينما يرى لامارك أن الزرافة اكتسبت هذه الصفة لاضطرارها إلى مد عنقها فى الأكل إلى أوراق الأشجار العالية فاكتسبت بالتدريج هذه الصفة . نجد أن دارون يرى خلاف ذلك حيث يعتقد أنه قديما كانت توجد زرافات كثيرة ذوات رقبات مختلفة الطول انتخبت من بينها تلك التى تمتاز بطول العنق لملاءمتها للبيئة . وهى وحدها دون غيرها كان لها القدرة على البقاء والتناسل . أما الأخرى التى لم تستطع أن تقاوم البيئة فقد انقرضت ، أو بمعنى آخر تكون رقبة الزرافة قد اكتسبت الطول عن طريق الانتخاب الطبعى .
انظر : قصة التطور ص٤٤ وما بعدها .

(٢) انظر : نظرية التطور بين العلم والدين ص٣٨ وما بعدها . مؤسسة الخانجى .

بل هو خاص بالأحياء فقط : « يذهب إلى مطلق التطور فى المادة إلى الخلية الحية إلى مختلف الأحياء . أجل لقد سلم بالتولد الذاتى . لكن لا بمعنى أن المادة تتجه بذاتها إلى الحياة ، بل بمعنى أن غازات لطيفة كالحرارة والكهرباء قد تنقل غير الحى إلى حى بكيفية متقطعة وفى نطاق ضيق . فالحياة فى الأصل من خلق الله * : أوجد الله أصولا طبيعية أو نماذج ينتظم كل منها من عدد معين من الأعضاء المعينة مركبة تركيبا معينا » .(١)

مآخذ على فكرة التطور عند لامارك :

لقد عارض كثير من العلماء نظرية لامارك خاصة القول بتوارث الصفات المكتسبة ** . ومن بين المطاعن الأخرى التى وجهت إليه أن تدريبه لم يكن

---

* يتفق الباحثون إلى حد كبير على أن لامارك لم يكن ملحدا وأن نظريته لا تفارق الإلحاد حيث إنه : « يسلم بوجود الله ، وينسب إليه وجود الهيولى المركب منها الكون ، ولكنه يقول إنه – تعالى – بعد أن خلق الهيولى بخصائصها لم يفعل شيئا وأن الحياة والأجسام الإلهية والعقل جميعا نتاج الهيولى ونتاج قواها » ، انظر : نقد فلسفة دارون ٢١/١ .

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٠٠ .

** من أقوى الضربات التى وجهت إلى لامارك ما أثبته العالم الألمانى « أوجست فايزمان » عن طريق التجارب التى أجراها عام ١٨٨٧م والتى ركزت على بتر أذناب الفئران لمدة طويلة بلغت تسعة عشر جيلا متتاليا وبعد هذه المدة الطويلة لم يحصل « فايزمان » على فأر واحد دون ذنب . مما جعله يخرج بنتائج مهمة تبطل ما ذهب إليه « لامارك » وتتمثل هذه النتائج فيما يلى :

١ – أن الصفات الوراثية تنتقل إلى الأجيال التالية عن طريق الخلايا الجرثومية Germ Plasm

٢ - توجد هذه الخلايا فى نسيج جسمى آخر وهو SomatoPlasm .

٣ - أى تأثير فى النسيج الجسمى دون التأثير على الخلايا الجرثومية لا ينتقل إلى الأجيال التالية

علميا بحتا ، إذ كان متأثرا إلى حد كبير بالمنطق والاستقراء كما كان يشطح شطحات أقرب إلى الحدس والتخمين منها إلى التفكير العلمى المنظم خاصة فى مؤلفاته الأولى فى الطبيعة والكيمياء . لكن هذا لا يعنى التقليل من قيمة مؤلفاته فى علم الحيوان ومنها موسوعته فى تقسيم الحيوانات اللافقارية والتى لا تزال مرجعا حيا لطلاب البيولوجيا وعلم التقسيم حتى الآن .(١)

وخلاصة القول أن نظرية لامارك لم تلق قبولا بل صادفت نقدا مراً ؛ لأن الصفات المكتسبة لا تتوارث . هذا وقد علق « كوفييه » على نظريته بأنها لا يخرج عن كونها « قطعة جديدة من حماقات لامارك » ، وقد كان هذا النقد المر كافيا لقتل النظرية فى مهدها فلم يعرها أحد اهتماما حتى الكنيسة لم تحرك ساكنا إزاء هذا الهذر على رأى كوفييه .(٢)

ولم تجد هذه النظرية رواجا إلا فى الاتحاد السوفيتى ويبدو أن سبب ذلك عقائدى Ideological أكثر منه علمى .(٣)

= وهذا يدل على أن الصفات التى يرثها الكائن الحى عن أبويه تأتى عن طريق الخلايا الجرثومية ولا دخل للخلايا الجسمية فيها ومن المقرر علميا أن الخلايا الجرثومية لا تخضع للمؤثرات والظروف البيئية التى تتطلب من عضو ما إهمالا أو استعمالا .
انظر : نظرية التطور بين العلم والدين ص٤٠ وما بعدها .
هذا ومن الأمثلة الشهيرة التى تثبت عدم صحة الرأى القائل بتوارث الصفات المكتسبة نذكر منها أن عملية الختان عند المسلمين واليهود والتى تجرى منذ آلاف السنين لم تترك آثارا وراثية .

(١) انظر : قصة التطور ص٤٨ .

(٢) انظر : قصة التطور ص٤٦ وما بعدها .

(٣) انظر : نظرية التطور عند مفكرى الإسلام للدكتور محفوظ عزام ص١٩٦ .

٤ - هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣م) :

فيلسوف إنجليزى شغف منذ حداثته بالعلوم الطبيعية والتاريخ ، وعمل مهندسا فى السكك الحديدية لبضع سنوات ، ثم عكف على قضية التطور التى شاعت فى ذلك العصر ، ثم درس علم الأجنة ووصل من خلال دراسته إلى القول بالتطور وأن الانتقال من « المتجانس » - أى النوع الواحد - إلى المتنوع « أى الأنواع الكثيرة المختلفة - هو قانون الطبيعة . فالحيوانات بدأت نوعا واحدا متجانسا ثم تحولت عن طريق التطور إلى أنواع كثيرة متنوعة .

وقد عرض ما توصل إليه فى دراساته عام ١٨٥٧م فى مقال تحت عنوان « التقدم قانونه وعلته » وقد كان قبل ذلك قد عرض للفكرة نفسها فى كتاب عن التطور وتعدد النوع عن طريق الوراثة بعنوان « مبادئ علم النفس » فى عام ١٨٥٥م .(١)

٥ - توماس هكسلى (١٨٢٥ - ١٨٩٥م) :

من أشهرالقائلين بنظرية التطور وأوسعهم شرحا للنظرية وإضافة عليها ، وقد وصل إلى علمه أن البعض اكتشف فى قاع البحر مادة هلامية لزجة فسارع وأعلن أن هذه المادة هى حلقة الانتقال من عالم الجماد إلى عالم الحياة ، وأنها همزة الوصل بين ما هو قبل انبثاق الحياة وما بعدها ، وأنها النقطة التى انطلقت منها الحياة لأول مرة وأطلق على هذه المادة اسم « بروتو بلاسما » ثم اتضح له بعد ذلك أن هذه المادة عبارة عن نوع من أنواع الطين لا أقل ولا أكثر ، أو أنها مخلفات نتجت عن تحلل بعض الكائنات العضوية . وقد اعترف بعد ذلك بخطئه

(١) انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٥٦ .

واعتـذر عن ذلك فى مؤتمر علمى بشفيلد عـام ١٨٧٩م وأعلن أسفـه ؛ لأنه كان سببا فى تضليل الكثير من الذين اعتقدوا صدق كلامه عن المادة الأولى للحياة .

لكن هكسلى بالرغم من ذلك ظل على موقفه من تطور الحياة من الجماد ثم صيرورتها إلى الكائنات ، بل كان أكثر الناس ضجيجا وجدالا ومهاترة حول دعوى التطور ونشأة الحياة من الجماد .[1]

موازنة بين التطور عند الإسلاميين والغربيين :

نستطيع من خلال ما تقدم أن نطرح تساؤلا مؤداه هل هناك فارق بين التطور عند الإسلاميين والغربيين ؟

نبادر فنقول إن : الحقيقة أن هناك فروقا جوهرية وجذرية بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى حول هذا الموضوع ولعل أهم هذه الفروق كما ذكرها الدكتور محمود مزروعة هى :

١ – أن ما يسمى تطورا لدى الإسلاميين لا يعدو كونه تصنيفا للموجودات ، وترتيبا لها من حيث الوجود الزمنى ، ثم المرتبة والأفضلية ، ثم الغاية من وجودها . أى من حيث علاقة الموجودات بعضها ببعض ، وحاجة بعضها إلى بعض .

٢ – ما يسمى « تطور الموجودات » لدى الإسلاميين لا يعنى انبثاق بعضها عن بعض ولا إرجاعها كلها إلى أصل واحد عنه خرجت ، ثم تطور بعضها عن بعض فى سلسلة حلقاتها تبدأ من كائن وحيد الخلية وتنتهى بالإنسان مرورا بما لا حصر له من الموجودات التى كان آخرها قبل الإنسان هو القرد ، أو حلقة

(١) المرجع السابق ص٣٦٤ وما بعدها .

مفقودة بين القرد والإنسان ما يزالون يبحثون عنها وينتظرون ظهورها لتكمل بها حلقات السلسلة . فالتطور عند الإسلاميين لا يعنى شيئا من ذلك ، إذ هم يعتقدون اعتقادا جازما يقينيا أن الموجودات كلها قد جاءت عن طريق الخلق المستقل لكل نوع على حدة .

٣ – يؤمن الإسلاميون أن الموجودات جميعها قد وجدت بقدرة الله – تبارك وتعالى – أوجدها الخالق البارئ المصور – سبحانه وتعالى – وأن وجودها على ما هى عليه ، وتنوع هذا الوجود والاختلافات الواضحة بين كل نوع وآخر من جانب ، والتشابه من جانب آخر ، وترتيب الموجودات وتصنيفها ، والعلاقة بين بعضها البعض ، كل ذلك يدل على أن وراء ذلك خالقا حكيما جعل هذه الأنواع والأصناف فى المخلوقات دليلا على حكيم خلقه وبديع صنعه .

٤ – أن ما يسمى « تطورا» عند الإسلاميين هو تطور مقصود موجه هادف . لا محل للصدفة فيه ، ولا مجال للارتجال أو الاعتباط ، ليس تطورا أعمى قد أتى مصادفة ، أو أتى بفعل البيئة ومواءماتها ، وإنما هو تنويع وتصنيف صدر عن الخالق الحكيم البديع .[١]

قال – تعالى – : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه وهو على كل شئ وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ .[٢]

---

(١) انظر : المذاهب المعاصرة ص١٢٩ وما بعدها .

(٢) الآيات ﴿ ١٠١ - ١٠٤ ﴾ من سورة الأنعام

مما تقدم نجد أن ما يسمى « تطورا » عند الإسلاميين يختلف اختلافا جوهريا وأساسيا عن التطور عند الغربيين ، وأنه لا توجد صلة لا من قريب أو بعيد بينهما . بل إن كلمة « تطور » ليست صائبة ولا دقيقة ولا مطابقة فى إطلاقها على ما يراه الإسلاميون .

لذا كان يمكننا ألا نعرض لهم حيث إنه لا توجد صلة لهم بالتطور الذى الذى يقول به « دارون » ومن سار على نهجه لكن تعرضنا لهم لما يلى :

١ – أن كثيرا ممن يكتبون عن نظرية التطور عند الغربيين يدرجون الفكر الإسلامى فى كتاباتهم باعتبار أن الإسلاميين – كما يزعمون – قد قالوا بهذه النظرية أو ما يشبهها ، وأن لهم اجتهادات حول هذا الموضوع . بل إن بعضهم قد أغرق فى الخطأ فزعم أن القرآن الكريم قد أشار إلى تلك النظرية وما احتوته من مضمون* .

٢ – أنه نظرا لما تقدم فقد تحدثنا بإيجاز عن فكر الإسلاميين الذى يزعم البعض أنه قول بالتطور وأنه يماثل ما أتى به « دارون » أو يشابهه بزعم أن الإسلاميين لهم السبق فى ذلك . لذا فقد أشرنا إلى أهم ما ورد لدى الإسلاميين فى هذا الإطار حتى يتبين الخطأ الفاحش والضلال المبين الذى يقع فيه هؤلاء الكتاب عندما يدرجون الفكر الإسلامى ضمن الفكر القائل بالتطور الوجودى . لذا فقد اتضح أن الإسلاميين لو يقولوا بما قاله « دارون » ومن سار على خطاه ، وما كان للإسلاميين أن يقولوا ذلك .

---

* الحقيقة خلاف ذلك حيث إن الآيات التى استدل بها هؤلاء تتحدث عن الأطوار التى تمر بها الأجنة فى الأرحام فلا يعنى ذلك أن الإنسان تطور عن كائنات أخرى – كما يزعمون – وسوف يرد الحديث عن هذا الموضوع بإذن الله – تعالى – فى مسألة خلق سيدنا آدم – عليه السلام – .

وهنا نلفت النظر إلى أمر غاية فى الأهمية وعلى قدر كبير من الخطورة ألا وهو أن ما نسميه « فكرا إسلاميا » و« مفكرين إسلاميين » لا يعنى بالضرورة تواؤمهم مع الإسلام ، ولا سلامة ذلك الفكر وصوابه فى ميزان الدين الحنيف . ولا أدل على ذلك من أن إخوان الصفا ليسوا ملتزمين بدين الله – الإسلام – ولا مرتبطين به ، وإن صُنِّفوا ضمن « الإسلاميين » أى المنسوبين إلى الإسلام . من هنا يظهر لنا أن هذه النسبة غير صحيحة بل وغير دقيقة إذ هؤلاء جماعة خلطوا تعاليم الإسلام وأحكامه بمزيج من الفلسفات والديانات الأخرى [1] ، وبنوا أفكارهم وكتاباتهم على أسس من التورية والتلوى والتلون والتلفيق ومن ثم نستطيع أن نطلق على فلسفتهم فلسفة تلفيقية .[2]

مما سبق يكون قد اتضح لنا أمر هؤلاء . إلا أنه بالرغم من ضلالتهم لم يقولوا بما قال به « دارون » وأمثاله . وإن كان الآخرون – ممن قالوا بما ذكرنا عن فكر الإسلاميين فى قضية التطور – ليسوا بهذا السوء الذى عليه « إخوان الصفا » ذلك مثل « ابن خلدون » العالم الفقيه وأضرابه .

(١) انظر : مقدمة رسائل إخوان الصفا ١/ ١٠ .
(٢) انظر : مقدمة رسائل إخوان الصفا ١/ ٩ وما بعدها .

الفرد والاس * :

قبل الحديث عن « دارون » لابد وأن نتحدث عن « الفرد رسل والاس » باعتبار أن « والاس » وصل إلى ما وصل إليه « دارون » ولم يكن على علم بما وصل إليه « دارون » وقد أشار « دارون » نفسه إلى هذه الحقيقة فى مقدمته لكتاب « أصل الأنواع » . إلا أن « والاس » لم تكتب له الشهرة التى حظى بها « دارون » .

وإذا أردنا أن نعقد مقارنة بين عقيدة الرجلين فسوف نجد أن « والاس » كان ماديا فى أول أمره إلا أن المشاهدات التى رآها قد أرغمته بعد ذلك على تغيير موقفه .

يقول « والاس » فى كتابه « المعجزات والاسبرتسم العصرى » : « كنت ماديا مقتنعا بمذهبى كل الاقتناع ، ولم يكن فى عقلى مكان للتصديق بحياة روحية ، ولا يوجد عامل فى هذا الكون كله غير المادة وقوتها ، ولكنى رأيت أن المشاهدات الحسية لا تغالب ، فإنها قهرتنى وأجبرتنى على اعتبارها حقائق مثبتة قبل أن أعتقد نسبتها إلى الأرواح بمدة طويلة ، ثم أخذت هذه المشاهدات مكانا من عقلى شيئا فشيئا ، ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ، ولكن بتأثير المشاهدات التى كان يتلو بعضها بعضا على صورة لا يمكن تعليلها بوسيلة أخرى » .(٢)

---

* عالم انجليزى فى التاريخ الطبيعى كان يعمل بالملايو وتوصل بمفرده وقبل أن ينشر «دارون» آراءه إلى نتائج مشابهة لنظريته عن أصل الأنواع فمن استنتاجات « والاس » المشهورة قوله : « إن كل نوع من الحيوان أو النبات أتى إلى الوجود على إثر نوع مشابه له أو قريب منه ، أو بمعنى أصح تطور من نوع مشابه » ولذلك يرى كثير من علماء التطور إسناد نظرية أصل الأنواع إلى كل من « دارون » و« والاس » على حد سواء . انظر : قصة التطور ص٦٤ .

(٢) على أطلال المذهب المادى لمحمد فريد وجدى ١٢٦/٢ نقلا عن : الفكر المادى الحديث للدكتور محمود عثمان ص١٣٥ .

أمـا « دارون » فقـد بدأ مـؤمنا فـى أول أمره ثم أضـحى بعد كـتـابه « أصل الأنواع » ملحدا زنديقا .

إلا أن محمـود عبـاس العقـاد يرى أنهمـا – أى والاس ودارون – لم يكـونـا « ملحدين معطلين وكان والاس شديد الإيمان بالله ، خامرته الشكوك فى الديانة التقليدية ولم تخامره فى الإيمان بالله وبحكمته ، فى كلامه ما يستدل به على تصديق المعجزات وخلود الإنسان .

أما دارون فلم يزعم قط أن ثبوت التطور ينفى وجود الله ، ولم يقل قط إن التطور يفسر خلق الحياة . وغاية ما ذهب إليه أن التطور يفسر تعدد الأنواع الحيوانية والنباتية ، وفى ختام كتابه عن أصل الأنواع يقول إن الأنواع ترجع فى أصولها إلى بضعة أنواع تفرعت عن جرثومة الحياة التى أنشأها الخلاق » .(١)

على كل هذه وجهة نظر سوف نرد عليها بحول الله – تعالى – .

هذا ولقد تحدث « والاس » عن عقيدة دارون فى كتابه « عالم الحياة » فقال : « إنه على ما يظهر قد صار إلى نتيجة واحدة ، وهى أن الكون لا يمكن أن يكون قد وجد بغير علة عاقلة ، ولكن إدراك هذه العلة على أى وجه كامل يطو على إدراك العقل البشرى » .

ثم عقب بعد ذلك قائلا : « وإننى لأُولِى هذه النظرة كل عطفى وشعورى ، ولكننى مع هذا أرى أننا مستطيعون أن نلمح قبسا من القدرة التى تعمل فى الطبيعة ، يساعدنا على تذليل الصعوبة البالغة التى تحول دون العلم بحقيقة الخالق الأبدى الذى لا أول له ولا آخر » .(٢)

---

(١) العقائد والمذاهب – عقائد المفكرين فى القرن العشرين – للعقاد ١١/ ٤٣٨ دار الكتاب اللبنانى بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٨م .

(٢) النصان نقلا : عن المرجع السابق ص٤٣٨ وما بعدها .

تشارلس دارون* (١٨٠٩ – ١٨٨٢م) :

ولد « تشـارلس دارون » لأبوين نصـرانيين ، وكـان جده لأبيـه « إراسم دارون » عالما فى الطبيعة وقد وضع نظرية فى التطور . بدأ دارون رحلته العلمية بدراسة الطب بجامعة « أدنبرة » لكنه لم يحقق نجاحا فى دراسته . فاتجه إلى دراسة اللاهوت بجامعة « كمبردج » إلا أنه لم يكمل دراسته اللاهوتية وانصرف عنها ؛ لأن جل اهتمامه كان منصبا على دراسة العلوم الطبيعية ثم واتته فرصة لتنمية هذا الاهتمام فاشترك فى رحلة علمية بحرية استغرقت خمس سنوات (١٨٣١ – ١٨٣٦م) مر فيها بكثير من سواحل أمريكا الجنوبية ، وقد كانت هذه الرحلة دافعا له إلى اتجاهاته وآرائه التى نادى بها بعد ذلك . كما أنها أمدته بكل ما يعد أساسا لنظريته التى اشتهر بها وهى « نظرية التطور » .

وفى أثناء هذه الرحلة عكيف على جمع المعلومات والمعارف التى أسس عليها نظريته . لكنه لم يبادر بنشر هذه المعلومات بل قضى بعد ذلك ما يقرب من نصف قرن من الزمان يستكمل ملاحظاته ويجرى تجاربه وينظم أفكاره التى تمخضت عن كتابه الشهير « أصل الأنواع » عام ١٨٥٩م .(١)

---

* الداروينية مذهب دارون ويطلق على معنيين :

١ – الداروينية مذهب التحول أو التبدل وهو القول بأن الأنواع تنشأ بعضها عن بعض لا سيما النوع الإنسانى إذ هو منحدر عن الأنواع الحيوانية التى ترجع إلى أصل واحد أو عدة أصول .

٢ – القول بأن تبدل الأنواع ناشئ عن الانتخاب الطبيعى وهى بهذا المعنى مقابلة لمذهب « لامارك » و« سبنسر » الذى يقرر أن تبدل الأنواع ناشئ عن التكييف بواسطة الممارسة والوراثة . انظر : المعجم الفلسفى للدكتور جميل صليبا ٥٥٦/١ دار الكتاب اللبنانى .

(١) انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٥١ ، وكواشف زيوف فى المذاهب الفكرية المعاصرة لعبد الرحمن حبنكة ص١٣٧ دار القلم دمشق الطبعة الثانية ١٤١٢هـ – ١٩٩١م .

ولقد أحدث هذا الكتاب* ضجة كبيرة واهتماما بالغا لدى الخاصة والعامة ، كما أحدث ردود أفعال متباينة . بلغت أشدها لدى رجال الكنيسة الذين اتهموه بالإلحـاد والكفـر والخـروج على تعـاليم الكتـاب المقـدس ، واتهـمـهم هم بالجـهل ومحاربة العلم والتقدم .

وقـد انقـسم العلمـاء فى ذلك الوقت إلى مـؤيدين للنظـرية التى تضـمنهـا الكتـاب ، ومـعارضين لها تمام المعـارضة ، وبين هؤلاء وأولئك وجد فـريق ثالث حاول التوفيق بين ما جاءت به النظرية وبين ما يقول به الدين النصرانى .

هذا هو موقف العلماء أما الجماهير والعامة فقد كان لها موقف حاسم مع الكنيسة ضد دارون إذ عز عليها أن يسلبها دارون إنسانيتها ويردها إلى أصل حيوانى وينفى عنها التكريم الربانى الذى خص الله به الإنسان حين خلقه على

---

* لقد تفرق الناس بسبب هذا الكتاب « أصل الأنواع » شيعا وأحزابا وقد حال المفكر « هاكسلى » ببراعة آراء « دارون » عن أصل الأنواع وكان من المتحمسين والمؤيدين لنظريته . وأثناء اجتماع مؤتمر تقدم العلوم البريطانى باكسفورد احتمت مناقشة حامية الوطيس بين أسقف اكسفورد وبين هاكسلى فسأل الأسقف متهكما ومحقراً آراء « دارون » : « هل يسمح السيد هاكسلى أن يخبرنا : هل القرد أحد أجداده لأمه أو أبيه ؟ وفى ذلك الوقت تمتم هاكسلى من أعلى المنصة بصوت سمعه المجاورون له قائلا : « تكلتك أمك أيها الأسقف ، الآن وقعت فى يدى ! » وببراعة فائقة وبديهة حاضرة أمطر « هاكسلى » الأسقف وابلا من الكلام ارتاعت له القاعة وارتجت وكال له الصاع صاعين ثم ختم كلامه بجملته الخالدة الشهيرة : « وعلى أية حال فإنى أفضل أيها السيد أن يكون القرد جدا من أجدادى عن أن يكون جدى أسقفا مثلك ! » ونتيجة لذلك هاجت القاعة ، واضطربت لهذه الطعنة المباشرة للكنيسة وقد قام الكابتن « روبرت فيتزروى » ربان السفينة الذى وافق على أن يحمل « دارون » على ظهر سفينته بعصبية زائدة ملوحا بالإنجيل وسط القاعة ونددا باليوم الأسود الذى وافق فيه على اصطحابه على السفينة . هذا بالرغم من أن كتاب « أصل الأنواع » لدارون لم يتعرض لأصل الإنسان إلا تلميحا فى جملة ختامية مؤداها : « أن نظريته عن أصل الأنواع قد تلقى ضوءا على أصل الإنسان وتاريخه » . انظر : قصة التطور ص٥٦ وما بعدها .

صورته ومـيزه بالعقل والقدرة على النطق . إلا أنهم سرعان منا تـغير موقـفهم واعتنقوا أفكار دارون متغاضين عن نسبتهم إلى الحيوان التى قال بها دارون وبدأوا فى مـهاجمة الكنيسة لموقفها منه ورأوا فى هذه النظرية معول هدم يهدم مـا بقى للكنيسة من سلطان عليهم .

وقد كـان من أسباب اعـتناق نظرية دارون مـوقف الكنيـسة الطغيـانى من الأمور كلها ومن العلم والعلماء خاصة ، والدعاية الضخمة التى قام بـها اليـهود للنظرية ولإيحاءاتها المصادمة للعقيدة بصفة خاصة .[1]

هذا ولقد عزز « دارون » كـتابه « أصل الأنواع » بكتـاب ثان أصدره عـام (١٨٦٨م) تحت عنوان « تغير الحيوان والنبات فى حال الدجن » .

ولقـد اقتـصرت نظرية التطور عند دارون فى هذين الكتـابين على النبـات والحيوان فقط حيث لم يتعرض للإنسان فيهما . لكنه مـا لبث أن أدرج الإنسان ضـمن النظرية فى كـتابه الذى أصـدره عـام (١٨٧١م) تحت عنوان : « تسلسل الإنسان والانتـخاب الطبيـعى » * ثم انطلق بعد ذلك بنظريته حـتى النهـاية حين أصدر كتابه « التعبير عن الانفعالات فى الإنسان والحيوان » وفى هذا الكتاب طبق التطور المادى فى نظريته على العقل والفكر لدى الإنسان ، وبذلك وضع الإنسان فى قفص واحد مع سائر الحيوانات ثم أغلق على الجميع أبواب نظريته التى زعم أنها أتت بالقول الفصل فى كل ما عرضت له من قضايا .[2]

---

(١) انظر : مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب ص٩٥ .

* هكذا وردت فى تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٥١ والصحيح الطبعى .

(٢) انظر : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٣٢ وما بعدها .

الدعائم التى بنى عليها دارون نظريته :

لقد تعددت الدعائم التى استند إليها دارون فى تأييد نظريته وهى الحفريات وعلم الأجنة والفسيولوجيا والانتخاب الطبعى وبقاء الأصلح وعلم التقسيم والتشابه فى التركيب الكيماوى والتوزيع الجغرافى إلى غير ذلك من الدعائم التى سوف نعرض لبعض منها فيما يلى :

١ - الحفريات :

الحفريات عبارة عن أى أثر مادى يدل على وجود الكائنات سواء أكانت حيوانية أم نباتية على سطح هذا الكوكب فى الأزمان الغابرة . أو هى : « ما دفن من بقايا الكائنات الحية ، أو ما ترك من آثارها ضمن الرواسب التى تكون الصخور الرسوبية من القشرة الأرضية » .[1]

ولوجود الحفريات لابد من توافر بعض الشروط التى من أهمها :

أ - دفن الكائن الحى بعد موته مباشرة ؛ وذلك لعدة أسباب وهى عزل بقايا هذا الكائن عن فعل الأكسجين الجوى حتى لا يتحلل أو يتأكسد ، وحتى لا تتعفن بقايا هذا الكائن بفعل البكتريا ، وكذا حتى لا تتمكن الحيوانات الأخرى من التهام بقاياه سواء كان نباتيا أو حيوانيا . كما أن أصلح البيئات لتكوين الحفريات هى بيئات الترسيب سواء أكان ذلك الترسيب مائيا أم أرضيا .

ب - يجب أن يكون للكائن الحى هيكل من نوع آخر فالحيوانات اللافقارية لها هيكل خارجى فى صور متعددة ، والحيوانات الفقارية لها عمود فقارى صلب والنباتات لها هيكل سيليلوزى فى صور مختلفة كالخشب والقلف واللحاء .

---

(١) نظرية التطور بين العلم والدين ص٥١ .

وتبـدو أهميـة تلك الهـياكل فى تكوين الحـفريات إذا علمنا أنه إن لم تتـرك الحيوانات الرخوة – مثلا – طابعها أو أثرها على صخر رخو تحللت ، ولم تترك أثرا يدل عليها .[1]

أمـا فـيمـا يتـعلق بتطور الإنسان فإن سـجل تطور الجنس البـشرى يتـضمن مجموعة من الأشكال اقتربت تدريجيا من هيئة الإنسان الحالى .

١ – اعتبار إنسان جنوب أفريقيا القرد Australopithecus Africanus أول نـوع مشابه للإنسان عاش منذ حوالى مليون سنة وكان قصيرا نسبيا وبه شبه بالقرد الكبير من حيث شكل وصفات الجسم ، وقد اكتشفت عدة حفريات من هذا النـوع فى أفـريقـيا ويعتقد العلماء الآن أن هذا النوع لا يمكن اعتبـاره قـردا أو إنسانا .

٢ – إنســان جـــاوه Jafa Ape Man الشبـيـه بالقرد نسبـة إلى جـزيرة جـاوه بأندونيسيا .

٣ – إنسان بكين Pecking Man الذى اكتشفت بقاياه فى الصين .

٤ – إنسان هايدلبرج Heidelberg Man اكتشفت حفرياته بألمانيا .

٥ – إنسان نياندرثال Neanderthal والذى اكتشفت حفرياتـه أيضا بألمانيـــا .

٦ – أما الإنسان الحديث Hamo - Sapiens أو الإنسان العاقل فقد بدأ ظهوره منذ حوالى ١٢٠٠ سنة فقط والتغيرات التى أدت إلى تكوينه كانت عقلية أكثر منها جسمانية .

---

(١) انظر : المرجع السابق ص٥١ وما بعدها .

وعلمـاء التطور لا يقولون إن الإنسان انحـدر من القرد كـما يعـتقد عـامـة الناس ، وإنما يعتقدون أن الإنسان والقرد كان لهما سلف مشترك .[١]

هذا ، ولقد اعـتبـر « دارون » أيضـا أن من الأدلة التى تربط بين الإنسـان والقرد الوجدان والشعور والانفعالات النفسية حتى العمليات الفسيولوجية المرتبطة بالانفعال تتشابه فى كل من الإنسان والقرد .[٢]

٢ - علم الأجنة :

إن تشـابه الأطوار الجنينيـة المبكرة للحـيـوانات فى أطوارها الأولى يشـبـه بعضه بعضـا إلى درجة كبـيرة لدرجة أنه قد يصعب التفرقـة بينهمـا فى هذه الأطوار إلى أن تظـهر الصـفـات الخاصـة بكل جنس على حدة . وقـد رأى علمـاء التطور أن هذا التشابه المبكر دليل على صحة نظرية التطور .[٣]

٣ - علم الفسيولوجيا :

يعد علم الفسيولوجى - علم وظائف الأعضاء - من العلوم التى اعتمدت عليـها الداروينية حيث وجـدت أن الألياف العضلية لجميع الحيوانات واحدة . ووجدت أيضا أن فى جـميع الفقريات رأسا وجذعا وذيلا وأطرافا ، وأن الأعضاء الداخليـة تتشابه فى جـميع الفقريات (الجـهاز الهـضمى والتنفسى والدورى) . وينطبق هذا الكلام على المجـمـوعـات الأخـرى من الحـيـوانات كـالديدان ، والمفصليات وغيرها . وهذا التشابه يؤكد حقيقة التطور عند التطوريين .[٤]

---

(١) انظر : نظرية التطور عند مفكرى الإسلام ص١٨٢ وما بعدها ، الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة للدكتور يحيى هاشم ص٣١ .

(٢) انظر : قصة التطور ص٦٩ .

(٣) انظر : نظرية التطور بين العلم والدين ص٨٢ ، والإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص٣٠ .

(٤) انظر : نظرية التطور بين العلم والدين ص٨٥ ، والإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص٢٩ وما بعدها .

٤ - الانتخاب الطبعى أو بقاء الأصلح :

يعنى الانتخاب الطبعى أو بقاء الأصلح أن التناحر على البقاء نتيجة محتومة لما فى طبيعة العضويات من قابلية للازدياد والتكاثر - وكل كائن فى الوجود إن أنتج فى حياته عددا وافرا من البيض أو البذور فلابد أن ينتابه الهلاك فى بعض أدوار حياته أو فى غضون بعض الفصول أو السنين اتفاقا ، وإلا فإن عدد أفراده يتكاثر بنسبة هندسية لا يتصورها الوهم - حتى لقد تقصر أى بقعة من البقاع دون أن تعضد نتاجه ، وسنن الحياة تقضى بأن يربو عددالأفراد الناتجة على العاجز منها على البقاء . لذلك يتعين أن تجرى على الكائنات سنة التناحر على البقاء ، أفراد النوع الواحد بعضها إزاء بعض وأفراد الأنواع الخاصة وحالات الحياة الطبيعية التى تحوط الأفراد - شرع فى حكم هذ السنة - إذ لا يتسنى فى مثل تلك الحال أن تزيد كمية مواد الغذاء بطرق علمية وليس ثمة قيد ناتج عن باعث اضطرارى يمنع التزاوج وإخلاف النسل ، فإذا أمعن بعض الأنواع فى التزايد بنسبة كبيرة أو قليلة - فإن كل الأنواع لا يتيسر لها أن تمضى خاضعة للنسبة ذاتها وإلا ضاق عليها العالم بما وسع فضاؤه تلك القاعدة التى عزاها «مالتوس» * إلى عالمى الحيوان والنبات وثبتها عليهما تثبيتا .(١)

ولقد بنى دارون نظريته على أساس اقتصادى حيث أخذ فكرة التقارب بين

---

* مالتوس اقتصادى انجليزى معروف (١٧٦٦ - ١٨٣٤م) ذهب فى كتابه إلى أن السكان حين لا يعوق تكاثرهم عائق يتضاعف عددهم فى كل ربع قرن ، فيزيد من فترة إلى أخرى بنسبة هندسية فى حسن أن أسباب المعيشة لا تزيد إلا بنسبة حسابية . ولكن الرذيلة والفاقة والحرب والهجرة مظاهر قانون طبيعى يرمى إلى تقليل عدد السكان للمعادلة بينهم وبين أسباب المعاش . انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٥٢ .

(١) انظر : أصل الأنواع ص١٩٤ .

الحيوانات وبعضها وامتياز كل صنف منها بفوارق تتلاءم مع البيئة التى يعيش فيها الحيوان والنبات من التنازع على البقاء .

وهنا يورد إسماعيل مظهر الدليل الذى جعل دارون يقول بفكرة التنازع على البقاء : « لقد عثر على مفتاح ذلك السر بعد قراءة مستفيضة واستيعاب ذهنى كامل لمقالة مشهورة كتبها « مالتوس » عن التعداد وتكاثر السكان ، وكان ذلك فى خريف سنة ١٨٣٦م ، ظهر له من هذه المقالة أن تزايد الأفراد غير المحدود يقتضى حدوث ما سماه التنافس على وسائل البقاء وأن نجاح جانب من المتنافسين معناه خيبة الآخرين ، وأن ذلك معناه الانقراض وأن الانتخاب أى انتخاب المتفوقين فى معركة التنافس ، إنما يرجع إلى أنهم أكثر تكيفا مع الوسائل والحالات التى يقتضيها التنافس ، فإذا كان التحول العضوى قد يحدث فى ظل الطبيعة الصرفة حدوثه فى ظل الإيلاف ، إذن فالتكاثر غير المحدود يقتضى تنافس الضروب المختلفة ، وأن ذلك التنافس لابد أن ينتهى بانتخاب الأكثر تكيفا مع مختلف حالات الحياة .»[1]

وبعد فقدانتهى دارون إلى أن الأنواع الحالية على اختلافها يمكن أن تفسر بأصل واحد أو ببضعة أصول نمت وتكاثرت وتنوعت فى زمن مديد بمقتضى قانون الانتخاب الطبعى أو بقاء الأصلح وهو القانون اللازم من تنازع البقاء . ومع هذا القانون ثلاثة قوانين ثانوية هى :

١ – قانون الملاءمة بين الحى والبيئة الخارجية .

٢ – قانون استعمال الأعضاء أو عدم استعمالها تحت تأثير البيئة أيضا بحيث تنمو الأعضاء أو تضمر أو تظهر أعضاء جديدة تبعا للحاجة .

(١) انظر : مقدمة كتاب أصل الأنواع لإسماعيل مظهر ص٧٩ .

٣ – قانون الوراثة وهو يقضى بأن الاختلافات المكتسبة تنتقل إلى الذرية على ما يشاهد فى الانتخاب الصناعى .(١)

وداروين يرد كل شئ إلى الطبيعة فهى التى تعطى الكائن الحى وهى التى تمنعه . وتكوينه وحياته مرتبط بهما ، كما أنه لم يشر إلى العناية الإلهية فى أية جزئية من الجزئيات . ولذا فقد ورد عن يوسف كرم أن : « النظرية الداروينية آلية بحتة تستبعد كل غاية ولا تدع للكائن الحى قسطا ما من التلقائية كالذى تدعه له نظرية لامارك ، بل تعتمد على محض الاتفاق أو الصدفة فى حياة النبات والحيوان » .(٢)

دور اليهود فى نشر نظرية التطور :

لاشك أن اليهود* دائما ما يكونون وراء أى دعوى تدعو إلى إنكار الخالق والاعتماد على الطبيعة وحدها دون غيرها موجدا للكون ، وإنكار الدين والقيم والأخلاق ، وكذلك كل دعوة تنادى بالتغير فى كل شئ .

وإذا حاولنا أن نطبق ذلك على الموضوع الذى نحن بصدده الآن فسنجد أن علماء اليهود قد أخذوا من نظرية « دارون » ما يدعم دعوتهم التى ينادون بها وذلك أن هذه النظرية – أى نظرية دارون – قد أعطتهم إيحاءين متلازمين هما :

١ – الإيحاء بالتطور الدائم الذى يلغى فكرة الثبات .

---

(١) انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٥٢ .

(٢) المرجع السابق ص٣٥٢ وما بعدها .

* دور اليهود واضح فى مذاهب كثيرة سواء أكانت هذه المذاهب منشقة على الإسلام كاليهودية مثلا ، أم لا تمت إلى الإسلام بصلة كالماركسية والوجودية ... الخ .

٢ – الإيحاء بحيوانية الإنسان وماديته بإرجاعه إلى الأصل الحيوانى من ناحية ، وحصر القوى التى تؤثر فيه من ناحية أخرى بالقوى المادية الممثلة فى البيئة أو على الأكثر فى الطبيعة وإغفال الجانب الروحى فى الإنسان إغفالا تاما . بالإضافة إلى إغفال كل تدخل لله فى عملية الخلق أو عملية التطور .

ومن نـتاج هـذين الإيحـاءين أخـذ العلمـاء اليهود « ماركس » و« فرويد » و« دور كايم » نظرياتهم التى قلبت العالم رأسا على عقب .

ومن ثم فقد قام اليهود بتعبئة الرأى العام لصالح نظرية دارون فهم يجيدون – كما يقول المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود فى أحد كتبه [1] صناعـة الرأى العام فى قوة بالنسبة لأغراضهم . فهم يقولون مثلا فى تكييفهم الرأى العام بالنسبة لشخصيات معينة أنهم هم الذين رتبوا نجاح « كارل ماركس » ونجاح « نيتشه » صاحب نظرية ألا أخلاق .

ولقـد رتب اليـهود نجـاح هؤلاء وغـيرهم ؛ لأنهم وجـدوا فى دعـوتهم أو مـذهبـهم هدمـا لكل الأفكار الروحـيـة والقيم الأخـلاقية فى الإنسـان . وهذه هى الدعوة التى ينادى بها اليهود فى كل زمان ومكان .

وهذه ليست دعوى تقال جزافا دون دليل أو برهان فقد ورد فى بروتوكلات حكماء صيهون ما نصه : « لا تتصوروا أن تصريحاتنا جوفاء ، ولاحظوا هنا أن نجاح دارون Darwin وماركس Marx ونيتشه Nietsche قـد رتبناه من قـبل .

(١) القطب الشهيد سيدى عبد السلام بن بشيش ص١٣٢ وما بعدها نقلا عن : نظرية التطور عند مفكرى الإسلام ص٢٢٢ .

والأثر غير الأخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى (غير اليهودى) سيكون واضحا لنا على التأكيد » .[1]

من هنا ومن خلال هذا النص نجد أن اليهود هم الأصابع الخفية وإن شئت فقل إن لهم اليد الطولى المباشرة وراء ترويج مذهب دارون بل وكل مذهب وفلسفة ونظرية وكل نشاط إنسانى هدام . حيث روجوا مذهب التطور وأولوه تأويلات بالغة واستخدموه للقضاء على الأديان والقوميات والقوانين . وأظهروا أن كل شئ بدا ناقصا شأنها يثير السخرية والاحتقار ثم تطور بعد ذلك فلا قداسة حينئذ لدين أو وطن أو قانون أو أى شئ من المقدسات التى تعتز بها الأمم * .

ودور اليهود والقوى الهدامة فى نشر نظرية دارون : قد تمثل فى قيامها بنشر هذه النظرية بصورة مذهلة بالرغم من أنها كانت ولا تزال مجرد نظرية لا تستند إلى براهين كافية ، وأنهم قدسوه ومجدوه واعتبروا دارون من أعظم محررى الفكر البشرى ولم يكتفوا بذلك بل وصفوه بأنه قاهر الطبيعة . كذلك وقفت الصحف بشكل واضح وملموس إلى صفه ضد الكنيسة بل وشهرت بأعداء النظرية وما ذلك إلا ؛ لأن معظم الصحف تعود ملكيتها لليهود وأتباعهم .[2]

وهنا تجدر الإشارة إلى أن اليهود دائما ما يتحينون الفرص لتقويض عقائد الأممين وإزالة ما بقى من أثر للدين فى حياة البشر . والدليل على ذلك أن

---

(١) البروتوكول الثانى .

* وأقرب مثال لذلك الانتهاكات غير الأخلاقية لبيت المقدس بفلسطين ، وتجريف الأراضى فى جنوب لبنان .

(٢) انظر : الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة ص٢١٥ الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .

« لامارك » قد قال قولا شبيها بما قاله « دارون » إلا أن اليهود لم يروجوا له ولم يستطيعوا استغلال نظريته كما استغلوا نظرية « دارون » وذلك راجع إلى الحدث السياسى العظيم الذى رج بل وزلزل المجتمع الأوروبى كله ألا وهو – الثورة الفرنسية – لم يكن قد حدث بعد – وكان المجتمع آنذاك – بالرغم مما يلاقيه من فساد وظلم لا يزال متماسكا بحيث لم تحن الفرصة بعد لدخول اليهود – إلا أن الأثر الذى أحدثته الثورة الفرنسية والتى اشتركوا فى توجيهها وجهة معينة قد قربت الهدف وأحدثت ثغرات استطاعوا أن ينفذوا من خلالها . فلما ظهر دارون ونادى بنظريته تلقفوه وأمسكوا به ، لأنهم رأوا فى مذهبه معولا هائلا لتحطيم كل القيم فى حياة البشر .[1]

ولاشك أن نظرية التطور إذا كانت ترى أن الإنسان حيوانا أو امتدادا لسلسلة التطور الحيوانى فإنه والحالة هذه يكون لا مكان للعقيدة فى تركيبه ولا للأخلاق ولا للتقاليد الفكرية والأخلاقية والروحية والاجتماعية ولا مقياس للصواب والخطأ فى الأعمال وبالتالى لا يمكن إعطاء أى عمل قيمة أخلاقية ... الخ .

لقد استخرج اليهود كل هذه المعانى من هذه النظرية التى ربما لم يقلها دارون أو لم يفكر فيها بل ولم يخطر على باله . إلا أنهم أسرعوا واقتنصوها وكونوا منها نظريات علمية واقتصادية ونفسية واجتماعية لمحاربة الدين والأخلاق والتقاليد . وضخموا هذه الفكرة ووضعوا بها قذائف لإطلاقها على كل معنى ثابت فى حياة البشرية من دين أو قيم أو أخلاق .

فاليهود دائما يتحينون الفرص ويستغلون الأحداث ولقد كان الخلل الفكرى

(١) انظر : مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب ص٩٧ .

فى حياة أوروبا فى ظل سيطرة الكنيسة هو الذى رشح للهزة التى أصابت هذا الفكر يوم أن أطلقت عليه فكرة التطور . فقد كان كل شئ فى حياة أوروبا المسيحية الكنسية ثابتا منذ الأزل وسيظل ثابتا إلى الأبد .

ولم تقتصر فكرة الثبات على فكرة الألوهية فقط بل امتدت لتشمل القيم الدينية والأخلاقية ليس هذا فقط بل أيضا الجبال والحيوان والطير والشجر والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية وكل شئ فى الحياة .

فمثلا البابا هو الباب له القداسة يذهب واحد ويجئ آخر لكن البابوية ذاتها وقداستها أمر ثابت لا يطرأ عليه تغيير . وما ذكر على البابوية ينطبق أيضا على الملوك والأباطرة والإقطاع من ناحية أن الأفراد تتغير . بينما الملكية والإقطاع شئ ثابت لا يتغير .

من هنا فقد غلب على الفكر الأوروبى المسيحى الكنسى تصور الثبات فى كل شئ . لكن عندما وقعت الثورة الفرنسية وأزالت الإقطاع وقوضت بل وزلزلزت نفوذ الكنيسة كان لهذا أثر مدو وعميق فى كل اتجاه لكن سرعان ما فقد أثره وحدته .

خلاصة القول أن نظرية دارون قد احتلت مكانا كبيرا فى نفوس الكثير خاصة اليهود لا لشئ إلا لأنها نظرية تدعو إلى إهمال الجانب الروحى فى الإنسان وتحطيم القيم والأخلاق وهدم الدين وهذا هو ما تنادى به اليهود .[1]

(١) انظر : المرجع السابق ص٩٨ وما بعدها .

آراء العلماء حول عقيدة دارون :

لقد تباينت الآراء وتعددت حول دارون وعقيدته الدينية فالبعض يرى أنه كان نصرانيا مؤمنا بالله ، والبعض الآخر يرى خلاف ذلك حتى أن البعض ظن أنه يهودى وذلك لبعض خصائص نظريته والتى منها :

١ – انحرافها عن جادة الصواب .

٢ – نتائجها المصادمة للدين .

٣ – نتائجها المدمرة للأخلاق والسلوك .

٤ – نتائجها المدمرة للعلاقات الإنسانية بل وللحياة الإنسانية بصورة عامة .(١)

والآن سوف نعرض رأى البعض حول عقيدة دارون .

يرى العقاد أنه كان مؤمنا * على الإطلاق وذلك من خلال عدة نصوص أوردها عن دارون عن طريق عدة مراسلات حيث قال العقاد : « لما سئل دارون عن عقيدته الدينية سنة ١٨٧٩م قال فى خطاب إلى مستر فورداس صاحب كتاب ملامح من الشكوكية : « إن آرائى الخاصة مسألة لا خطر لها ولا تعنى أحدا غيرى ، ولكنك سألتنى فأسمح لنفسى أن أقول أننى متردد ، ولكننى فى أقصى

---

(١) انظر : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٤١ .

* ذهب إلى هذا الرأى أيضا إسماعيل مظهر حيث قال : « لا يستطيع أحد من الذين تعمقوا فى دراسة كتاب أصل الأنواع أن يقول إن العلامة دارون كان منكرا للألوهية » انظر ملقى السبيل ص٥٨ نقلا عن : الإسلام والإتجاهات العلمية المعاصرة للدكتور يحيى هاشم ص٣٧ .

خطرات هذا التردد لم أكن قط ملحدا بالمعنى الذى يفهم فيه الإلحاد عل أنه إنكار لوجود الله ، وأحسب أن وصف اللا أدرى يصدق على فى أكثر الأوقات – لا فى جميعها – كلما تقدمت بى الأيام » .

هذا ولقد كتب دارون سنة ١٨٧٣ م إلى طالب هولندى كان قد سأله نفس السؤال فقال : « ... إن استحالة تصور هذا الكون العظيم العجيب وفيه نفوسنا الشاعرة قائما على مجرد المصادفة هى فى نظرى أقوى البراهين على وجود الله ، ولكننى لم أستطع قط أن أقرر قيمة هذا البرهان » .

وقد سأله طالب ألمانى سنة ١٨٧٩ م عن مذهبه « هل يتفق مذهب التطور والإيمان بوجود الله ، فأوصى أحد أعوانه أن يكتب إليه ما فحواه أنهما يتفقان ، ولكن الناس يختلفون فى فهم المقصود بالإله » .

إلا أن الطالب كان يطلب المزيد ويريد التفصيل فكتب إليه « دارون » فى هذه المرة وقال له : « إنه لا يرى دليلا على الوحى وأن الإيمان بالبعث متروك لكل من يشاء أن يتخذ فيه معتقدا بين المحتملات المتضاربة » .

هذا ولقد أورد العقاد آخر ما صدر عن دارون فى هذا الموضوع عن طريق خطاب أرسله إلى جراهام صاحب كتاب عقيدة العلم كتبه سنة ١٨٨١م وقال فيه : « إنك عبرت عن عقيدتى الباطنة ... إن الكون لم ينجم عن مصادفة ، ثم عاد يتساءل : ما قيمة هذه العقيدة فى إثبات حقيقتها ؟ » .[1]

ويقول أيضا العقاد عن « والاس ودارون » إنما لم يكونا ملحدين معطلين

(١) هذه النصوص نقلا عن : العقائد والمذاهب العقاد ٤٣٩/١١ وما بعدها .

حيث قال : « ولقد هوجم المذهب – أى مذهب التطور – كثيرا باسم الدين ، وجعله بعضهم مرادفا للإلحاد والمادية ، ومع هذا لم يكن والاس ولا دارون ملحدين معطلين » .(١)

من خلال ما تقدم من نصوص نجد أن العقاد يرى أن دارون كان مؤمنا . ولكننى أخالف العقاد فيما ذهب إليه ، لأن المتأمل فى هذه النصوص التى أوردها العقاد عن دارون يرى أنه كان مترددا متخبطا لا يرى دليلا على الوحى ، وأن الإيمان بالبعث متروك لكل إنسان له أن يعتقد فيه ما يشاء ، كما أنه يرى أنه لا قيمة إذا كان الكون لم ينتج عن المصادفة وكل هذه الأشياء يظهر من خلالها عدم الإيمان . فالبرغم من كثرة البراهين التى تدلل على وجود الله – سبحانه وتعالى – إلا أن « دارون » لم يستطع أن يقرر قيمة هذا البرهان .

ويرى البعض الآخر أنه كان مؤمنا قبل ظهور كتابه « أصل الأنواع » ، وذلك من خلال نصوص لدارون نفسه . إلا أنه أضحى كافرا وأعلن أسفه بعد ذلك لاستعماله كلمة الخلق . ويرى يوسف كرم أنه كان ماديا ملحدا * بالله .

يقول يوسف كرم : « وقد كان – أى دارون – مؤمنا بالله إلى وقت ظهور كتابه « أصل الأنواع » ، وقال فى ختامه إن الصور الحية الأولى مخلوقة ، ثم تطور فكره شيئا فشيئا حتى أعلن أسفه لاستعماله لفظ الخلق مجاراة للرأى العام ، وقد صرح بأن الحياة لغز من الألغاز ، وأن ما فى العالم من أم يعدل بنا عن القول

---

(١) المرجع السابق ٤٣٨/١١ .

* يرى الدكتور يحيى هاشم أن فكرة الانتخاب الطبيعى تحاول إنكار وجود الله . انظر الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص٣٧ الهامش .

بعناية إلهـية ، وأنه هو « لا أدرى » لا يقول بالعناية ولا بالصدفة ، وأن الكلمة الأخيرة عنده هى أن المسألة خارجة عن نطاق العقل ، ولكن بوسع الإنسان أن يؤدى واجبه » .(١)

ولاشك أن العبارة الأخيرة من هذا النص قد استرعت انتباه يوسف كرم فرد عليها قائلا : « وهل يدع مذهبه محلا لواجب ؟ ما مذهبه إلا المذهب المادى المعروف ، وقد خلع عليه حلة علمية شائقة ،و لكنها لا تخفى عيوبه عن النظر الثاقب » .(٢)

هذا ولقد وردت عن دارون عدة أقوال يصرح فيها بإنكار وجود الله – تعالى – ويصف نفسه بالإلحاد .

يقول دارون لأحد أصدقائه : « على أن أخبرك كرجل شريف بأننى بلغت غاية الهرطقة والإلحاد فى قولى إنه ليس ثمة من أنواع مستقلة فى الخلق ولعلك ستحتقرنى من أجل ذلك » .(٣)

ليس هذا فقط بل إن زوجه تقرر كفره عندما قالت : « لا ريب عندى فى أن دارون قد كفر بالله ولكن الله غفور رحيم وهو سيصفح عنه » .(٤)

ولا عجب بعد ذلك إذا ما رأينا العقاد يتحدث عن دارون ويقول عنه إنه يرفض أن يوصف بالإلحاد من خلال نص ذكره فى أحد كتبه حيث يقول :

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٥٤ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ص٣٥٥ .
(٣) عباقرة العلم ص١٧٦ نقلا عن الإنسان والداروينية .
(٤) المرجع السابق ص١٨٤ .

« دارون كان يأبى أن يوصف بالإلحاد ، ويحسب نفسه أحيانا « ربانيا » أى منكرا للمصادفة ومرجحا لعقيدة الربوبية ، ويؤكد إلى آخر أيامه أن الاستدلال بمذهب التطور على إنكار الإله خطأ كبير وادعاء لا سند له من العلم ولا من التفكير الأمين » .(١)

وهنا يرد تساؤل بماذا يفسر موقف دارون من الألوهية وقد ذكر العقاد بعضها منها ؟

يجيب عن هذا التساؤل أحد تلاميذ « دارون » وهو « بوخنر » فى مشرحه لمذهب دارون حيث يرى أن دارون كان يمكن أن يستغنى عن القول بالخلق الذى لم يقل به إلا لمراعاة الأحاسيس الدينية لمواطنيه وكان هو أجدر به ، لأن قاعدة مذهبه الصدفة العمياء . وكله قائم على أفعال طبيعية لا شئ من القصد فيها . ومذهبه ألصق بالمادية من مذهب « لامارك » فإن « لامارك » يقول بناموس عام للارتقاء ، وأما دارون فيرى أن ارتقاء الأحياء يتوقف على تجمع تدريجى فى الأفعال الطبيعية العارضة الضعيفة التى لا تحصى .(٢)

من خلال هذا النص نجد أن بوخنر قد وضع الأمور فى نصابها وقرر عدم إيمان دارون وذلك يتمثل فيما يلى :

١ - أن ما قاله دارون عن العناية الإلهية لم يقله عن اعتناق أو عقيدة راسخة أو لأنه يعترف بها ولكن الهدف الحقيقى من وراء ذلك هو إرضاء المشاعر الدينية للجماهير .

---

(١) العقائد والمذاهب للعقاد ١١/ ٤٤٠ .

(٢) انظر : شرح بخنر على مذهب دارون ص١١٤ نقلا عن : الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه للدكتور محمود عثمان ص١٤٠ وما بعدها .

٢ – أنه كان يجب على دارون ألا يراعى مشاعر الجماهير ذلك لأن مذهبه أساسا ينطلق من قاعدة أساسية هى القول بالصدفة العمياء التى لا دخل فيها للإرادة الإلهية أو القصد .

وبغض النظر عن عقيدة « دارون » فإن مذهبه وإيحاءات نظرية التطور تصادم العقيدة وتنكر العناية الإلهية فى الكون والأمر عنده لا يعدو أن يكون مجرد صدفة عمياء .(١)

نقد الدعائم التى بنى عليها دارون نظريته :

١ – الحفريات :

لقد كان للحفريات دور كبير فى بناء نظرية دارون . إلا أن ما كان مسلما بالأمس عند دارون وأتباعه من فلاسفة التطور أصبح اليوم مشكوكا فيه وذلك بفضل الاكتشافات العلمية الحديثة وبصفة خاصة فى مجال الحفريات .

والخطأ الذى ارتكبه دارون وأشياعه أنه عمم الحكم – أى القول بالتطور – على جميع الكائنات فى الكرة الأرضية . هذا بالرغم من أن مشاهداته اقتصرت على دائرة محدودة من الكائنات ومناطق يسيرة من الكرة الأرضية . مما جعل دارون يعلن نقص المعلومات المستقاة من الحفريات وذلك نظرا لقلتها بل وضآلتها .

يقول دارون : « أما القول بأن مجموعاتنا الجيولوجية ناقصة ، فحقيقة لا ينكرها أحد من الباحثين وسوف لا ينسى واحد من المحققين كلمات العالم

(١) انظر : مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب ص٩٦ .

الأشهر ، إدوارد فوريز ، حيث ذكر كل مشتغل بالأحافير أن عددا عديدا من الأنواع الأحفورية لم تعرف ولم تعين بأسماء إلا من البحث فى نموذج واحد أو فى نماذج مهشمة ، وفى الغالب من نماذج قليلة جمعت من بقعة محدودة . على أن الاستكشاف الجيولوجى لم يتناول إلا باحة صغيرة من كرة الأرض العظمى وما استكشف منها لم يُصْرَفَ محوه من العناية ما يستحق ، .(١)

والذى يسجل العجز والقصور فى ذلك هو ما قرره الباحث الطبيعى عند تأمله للكائنات الحية وتعاقب وجودها فى الأزمنة الجيولوجية من أن هذه الأنواع لم تخلق خلقا مستقلا بل نشأت من أنواع أخرى .(٢)

هذا بالإضافة إلى أنه توجد بعض الشروط * التى لابد من توافرها حتى يمكن الاستفادة من الحفريات ومن ثم الاستدلال بها . ومن خلال النص السابق يتضح لكل من اشتغل بالحفريات أن هناك عددا كبيرا منها لم يعرف ولم يعين إلا من خلال نموذج واحد أو نماذج متهشمة ، أو عدة نماذج قليلة من أماكن محدودة من الكرة الأرضية وهذا يتنافى مع الشروط التى يجب أن تتوافر فى الحفريات . خاصة . وأن دارون يعتمد اعتمادا كليا عليها . هذا بالإضافة إلى أن النظرية من أساسها تعتمد على بطلان مذهب النكبات ** فى الجيولوجيا ولعل هذا قد جعل

---

(١) أصل الأنواع ص٥٥٨ وما بعدها .

(٢) انظر : أصل الأنواع ص١١٩ .

* انظر الدعائم التى بنى عليها دارون نظريته .

** هذا المذهب يعنى أن الأرض كان ينتابها فى عصورها الأولى نكبات جيولوجية تمضى بكل ما على سطحها من حيوان أو نبات ، ثم تأخذ الحياة العضوية فى الظهور على سطح الأرض حالا بعد حال ، حتى تنتابها نكبة أخرى تمضى بما يكون قد نشأ فيها من الأحياء ، وهكذا دواليك على مر العصور . لذا وقف هذا المذهب حجر عثرة دون انتشار نظرية التطور .

انظر : الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص٤٢ .

إسماعيل مظهر يقول : « لا جرم أن هذا المذهب الذى انتشر وذاع فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، كان أكبر حائل يقوم دون انتشار مذهب النشوء والارتقاء » .(١)

وإذا كان مذهب الذكيات قد وقف حجر عثرة أما نظرية التطور فلم هذه الضجة حول نشر هذه النظرية . لاشك أن الأمر يخرج عن كونه مجرد تدليل على صحة نظرية أو العمل على انتشارها ، بل هو إلحاد وكفر بالله والعياذ بالله .

وهذا ما صرح به أحد المتحمسين لنظرية الارتقاء وهو « آرثر كيث » حيث يرى : أن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق المباشر وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه .(٢)

لذا نجد أن الأمر لا يعدو أن يكون نظرية علمية إلا أنه تعدى ذلك وجاوزه فأصبح إلحادا وكفرا ، وأنه لا طريق أمام أصحاب هذه النظرية إلا التسليم بها رغم أن الأدلة العلمية لا تؤكد صحتها وما هذا ، إلا لأن البديل الآخر هو الإيمان بالله وهذا ما لم يخطر على بال أحد منهم .

هذا ولقد أصبح افتقاد هذه النظرية للبرهان العلمى حديثا للمؤتمرات العلمية التى تعقد من آن لآخر . وسوف نعرض لبعض الأمثلة التى تدل على التزوير فيما يتعلق بالحفريات التى كانت إحدى الدعائم التى اعتمد عليها دارون .

١ – لقد أعلن الطبيب الهولندى « دبوا » فى سنتى ١٨٩١ – ١٨٩٢م أنه

(١) ملقى السبيل نقلا عن : المرجع السابق .
(٢) انظر : الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان ص٦٦ .

اكتشف إنسان جاوه وهذا الاكتشاف كان يدلل به على تطور الإنسان من القرد إلى الإنسان وكان إنسان جاوه إحدى مراحل التطور .

ولننظر ماذا قالت الدوائر العلمية عن هذا الاكتساف : « إن القطع الخمس كانت قطعة من جمجمة تشبه جمجمة قرد كبير وعظم فخذ أيسر وثلاثة أضراس ، وقد اكتشفت هذه العظام بعيدة الواحدة عن الأخرى نحو عشرين خطوة ، واكتشفت قطعة من الفك الأيسر فى مكان آخر من الجزيرة ، ولكن فى طبقة أرضية من العمر ذاته » .(١)

هل يمكن القول بأن هذه الأجزاء التى وجدت متناثرة بعيدا عن بعضها البعض تعتبر اكتشافا علميا وأن هذه القطع والأجزاء كانت لإنسان من نوع واحد .

٢ – ومن الأمثلة على التزوير أيضا ما ورد فى مجلة « ساينس نيوز » الصادرة فى فبراير عام ١٩٦١م حيث جاء بها : « إن من أعظم الأخطاء المكتشفة بالطرق العلمية هى قضية إنسان « بيلتداون » الذى اكتشف فى سوسيكس فى انجلترا والذى يعتقد العلماء أنه يعود إلى نصف مليون سنة إلى الوراء ، وبعد أخذ ورد ثبت أن هذا الإنسان لم يكن إنسانا بدائيا قط بل هو مجموعة من جمجمة إنسان اليوم ، وفك قرد وقدموه ببيكرومات البوتاسيوم وبملح الحديد لإعطائه شكلا متحجرا أقدم من حقيقته ، ولم تصبغ فقط الجمجمة بل بردت الأسنان لكى تظهر وكأنها ذابت من الاستعمال » .(٢)

---

(١) الموسوعة البريطانية نقلا عن : خلق لا تطور ص١١٣ بقلم مجموعة من علماء الغرب ترجمة د/ إحسان صدقى دار النفائس بيروت .

(٢) خلق لا تطور ص١١٣ .

ولقد ذكرت مجلة « المختار من ريدر دايجست » عام ١٩٥٦م « أن جميع القطع المهمة قد موهت وزورت أيضا وأن إنسان بيلتداون كان عملية تزوير من أولها إلى آخرها » .(١)

والأمثلة كثيرة فعلماء التطور يترقبون كل اكتشاف يثبت الخلق لا التطور . وما إن يظهر أحد العلماء مدافعا عن الخلق حتى تزور أدلة جديدة مكتشفة كى تثبت صحة نظرية التطور . وهذا المثال يوضح ذلك .

٣ – ذكرت مجلة العلوم الأمريكيـة فى عـددها الصادر فى يناير ١٩٦٥م « أن جميع علماء التطور لا يتورعون عن اللجوء إلى أية حيلة كى ينسجوا أدلة وهمية لإثبات ما ليس لديهم عليه دليل » وجاء فى المقال المذكور تعقيبا على نيزك يحتوى على مواد عضوية اتخذه علماء التطور دليلا على التطور ما يلى :

« إن فحص قطعة من هذا النيزك الذى سقط فى الجنوب الغربى من فرنسا منذ أكثر من قرن من الزمن قد دل على أن هذا الجسم السماوى قد مُوِّهَ بمهارة فائقة بمواد عضوية أرضية » ويبدو أن المزورين قد نَقَّعوا قطع النيزك فى الماء كى تلين ثم إنهم أضافوا إليها مواد غريبة مختلفة ثم إنهم باستعمال الصمغ موَّهوا سطحه لكى يشبه من جديد القشرة التى تحدث بالحرارة الجوية » ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا النيزك سقط بعد خمسة زسابيع من إعلان العالم « باستور » دفاعه العظيم عن خلق الإنسان والذى كانت له ضجة كبيرة فى الأوساط العلمية حيث أعلن أن الحياة لا تأتى إلا من الخالق العظيم » .(٢)

---

(١) خلق لا تطور ص١١٤ .
(٢) المرجع السابق .

من هنا نجـد أنه قد وصل الحد ببعض العلماء إلى أن يزوروا ويكذبوا باسم العلم لماذا كل هذا ؟ إنه من أجل إثبات أن الكائنات ليست من صنع الخالق – جل وعلا – وإنما هى من خلق المادة .

مما تقدم نجـد أن أدلة علم الحـفـريات لا تزال ناقـصـة وفى نفس الوقت متغيرة وبالتالى لا ينبنى عليها دليل قطعى ، وأنه قد يكتشف فى الغد من الحقائق ما هو نقيض الموجود الآن . وعلى فرض ثبات أدلـة علـم الحفـريات فـقد ذكـر عبـد المجيـد الزندانى أن وجـود الكائنات الأولـى البدائيـة أولا ثم الأرقى بعـد ذلك ليس دليـلا على تطور الكائنات الراقيـة من الكائنات الأدنى ، بل هو دليل على ترتيب وجود هذه الكائنات فقط عند ملاءمة البيئة لوجودها على أية صورة كان هذا الوجود . ويعنى ذلك أن الحيوان الأرقى جاء بعد الأدنـى وليس هناك ما يدل على أن الأرقى تطور عن الأدنى .[1]

٢ – علم الفسيولوجيا :

إن التشابه التشريحى للكائنات الحية المختلفة لا يعنى خروج كل صنف منهـا من الآخـر . لكنه يدل على وحـدة الخـالق فى الجـميع ، لأنه خلقـها كلها بأسلوب واحد وهنا يصير التشابه حـجة على القائلين بالتطور لا لهم ، لأنه ينتـهى إلى نتيجة مباينة لما يريدون إثباته .

وهنا يذكـر يوسف كـرم أن دارون تعـجب ، لتـشابه أفـراد النوع الواحـد من حيث بنية الجسم وتوزعها أصنافا تبعا للبيئة وظروف المعيشة . فظاهر أن النوع ثابت من حيث الجـوهر مـتـغيـر من حـيث العـرض ، ولكن دارون اتخـذ التـغيـر

(١) انظر : توحيد الخالق ص٨٢ وما بعدها

العرضى ، ولكن دارون اتخذ التغير العرضى معيارا وفسر الأنواع نفسها كما تفسر الأصناف . وقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين إلى اعتبار الإنسان نوعا قائما بذاته بسبب ما يختص به من علم ولغة وفن وصناعة وخلق ودين ، وهى مظاهر للعقل لا نظير لها ولا أصل فى سائر الحيوان . وقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين إلى الإقرار بموجد للمادة موجه لها ، لقصور المادة عن تنظيم نفسها . ولكن من العلماء والفلاسفة من يفكرون كالعامة بالمخيلة دون العقل فيسغون المحالات » .(١)

إن ما ذكره يوسف كرم هو عين الحقيقة والواقع عند هؤلاء الماديين ، لأنهم يقبلون باسم الإلحاد ما يرفضونه باسم الإيمان وخير دليل على ذلك مذهبهم فى التطور .

ونختم كلامنا حول التشابه التشريحى للكائنات بما ذكره الدكتور يوسف عيسى حيث قال : « إن تشابه الحيوانات فى الإطار الأساسى لتكوينها يدل على وجود أسلوب واحد للخلق فعين القطة مثلا لا تختلف فى تكوينها عن عين البقرة أو الأرنب أو الإنسان . وكذلك الجهاز الهضمى والعصبى والغدد الصماء فى شتى أنواع الحيوان تدل على وجود أسلوب واحد للخلق . تماما كما يقرأ الإنسان بعض صفحات من كتاب أحد مشاهير الكتاب فيستدل عليه من أسلوبه » .(٢)

٣ - علم الأجنة :

يتصور أكثر التطوريين جرأة أن الجنين البشر يمر بكل مراحل التطور

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٥٥ .

(٢) مجلة عالم الفكر العدد الرابع من المجلد الثالث نقلا عن : الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص٥٨ وما بعدها .

الحيوانى ، أى من من الخلية الواحدة إلى الإنسان . ويفترضون أن الشهور القلائل التى تنقضى بين الحمل والولادة تغطى ملايين الأعوام من الوجود والتطور من بويضة إلى سمكة زاحفة ، إلى ثديية ، إلى قرد ، ثم إلى طفل . ومن الطبعى أن أول سؤال يقفز إلى الذهن هو إذا كان فى الإمكان حدوث ذلك خلال تسعة أشهر فلماذا استغرق حدوثه ملايين السنين من قبل ؟

إن هذه النظرية الغريبة التى قدمها « إرنست هيكل » تقول : إن تاريخ الجنين هو إعادة لتاريخ الأنواع . ومعظم التطوريين لا يؤمنون بها . إنهم يحذفون المراحل العديد ة ويحتفظون بثلاث فقط هى السمكة والذيل والشعر .

إنهم قد لاحظوا شقوقا شعيبية فى الجنين . ولكن الحقيقة أن هذه الثنايا تتكون مع نمو الجنين ، فهناك التجاويف السمعية والجزء الأسفل من الفك وجزء من الرقبة . أما ما يسمونه ذيلا فإنه فى الواقع العمود الفقرى جنبا إلى جنب مع الأمعاء التى تنتهى بالفتحة الشرجية . فهل هناك حيوان يفرز فضلاته من طرف ذيله ؟ أما ما يدعونه شعرا ، فإن ذلك الزغب المتناهى الدقة والنعومة الذى يكسو الجنين ويسقط عند الولادة لا يمكن مقارنته بتلك الفروة الغليظة الخشنة التى تغطى أجساد الحيوانات .

لقد اعترف « أرثر كيث » بأننا كنا نتوقع أن يكرر الجنين الصفات المميزة لأسلافه ، من أدنى أشكال الحيوان إلى أعلاها ، ولكن بعد دراسة الجنين فى كل مراحل تكوينه خابت آمالنا . فالجنين لم يكن قردا فى أيٍّ من مراحله .[1]

(١) انظر : مذهب النشوء والارتقاء فى مواجهة الدين لمنيرة الغاياتى ص١٢ وما بعدها نقلا عن : نظرية التطور عند مفكرى الإسلام للدكتور محفوظ عزام ص٢٢٨ وما بعدها .

هذا ولقد اعترف « هيكل » رسميا بتزوير بعض الصور التى تصور المراحل المختلفة للجنين ، وذلك من خلال مقالة كتبها فى ديسمبر ١٩٠٨م تحت عنوان « تزوير صور الأجنة » ، كما اعترف أيضا بأن مئات العلماء شاركوه هذه الجريمة ، فإن كثيرا من الصور التى توضح علم أبنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة المنتشرة والمعول عليها مزور مثل تزويره تماما لا يختلف عنه فى شئ .(١)

٤ - الانتخاب الطبعى أو بقاء الأصلح :

لقد ذهب دارون إلى هذا الدليل بعد اطلاعه على مقال « مالتوس » عند التعداد وقد تقدم الحديث عنه .

وَلِنَقْدِ هذا الدليل نورد ما أثبته الواقع من فساد نظرية « مالتوس » وبالتالى ما ترتب عليها من القول بالتنازع على البقاء والانتخاب الطبعى اللذين قال بهما دارون .

لقد رأى « مالتوس » أن المتواليات العددية والهندسية * تتم كل ربع قرن

---

(١) انظر : الجواهر فى تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوى جوهرى ٤٩/٢ مصطفى البابى الحلبى الطبعة الثانية ١٣٥٠هـ .

* المتوالية العددية : هى مجموعة من الكميات المتتالية الفرق بين أى كمية منها والكمية السابقة لها مباشرة يساوى مقدارا ثابتا يسمى أساس المتوالية مثال ذلك : مجموعة الأعداد ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ... تكون متوالية عددية أساسها ٢ ، ومجموعة الأعداد ١٧ ، ١٤ ، ١١ ، تكون متتالية عددية أساسها - ٣ .

المتوالية الهندسية : هى مجموعة من الكميات المتتالية النسبة بين أى كمية منها والكمية السابقة لها مباشرة تساوى مقدارا ثابتا يسمى أساس المتوالية . مثال ذلك مجموعة الأعداد ٦ ، ١٨ ، ٥٤ ... تكون متوالية هندسية أساسها ٣ . ومجموعة الأعداد ١٢٨ ، ٦٤ ، ٣٢ ، ١٦ تكون متتالية هندسية أساسها $\frac{1}{2}$.

انظر : أسس التحليل الرياضى للدكتور إبراهيم محمد مهدى ص١٠٠ . طبعة ١٩٨٨م .

ولو صح هذا لمات أكثر العالم فى أيامنا من الجوع – حيث لا تكفى الموارد إلا عددا قليلا من السكان على حين وجدنا أن إنتاج العالم من الأغذية يزيد على احتياجات مجموع السكان بمقدار ١٠ ٪ كما جاء فى تقرير منظمة الأمم للأغذية والزراعة « الفاو » فى مايو عام ١٩٩٠م .

كما يذكر التقرير أيضا أن عشرين مليونا يموتون سنويا بسبب الجوع على الرغم من هذه الزيادة . فالموت جوعا ليس لنقص الأغذية ولكن لعدم العدل فى التوزيع ولوجود الظلم والجور ، ويراعى أن هذه الزيادة مع إنفاق أكثر الموارد على السلاح وتخريب كثير من العمران .(١)

وهذا الخلل المزعوم المتزايد فى السكان والموارد لا وجود له إلا فى أوهام أتباع نظرية « مالتوس » .

إن « مالتوس » وأتباعه حرصوا على عدم زيادة النسل بتأخير الزواج مع العفة . وعدم بناء مساكن لذوى الدخل المحدود وتقديم أى عون للمحتاجين ما دام سيساعد على الزواج ومن ثم على زيادة السكان .

كما أنه لم يكن يتوقع هذا التقدم التكنولوجى المذهل فى كافة جوانب الحياة ، حتى أصبح الإنتاج بسببه متوافرا إلى حد أن الدول المتقدمة ترمى بالفائض من إنتاجها فى البحر للمحافظة على السعر العالمى وليهلك من يهلك فى سبيل رفاهية الدول المتقدمة .

---

(١) انظر : كتاب الأمة – الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين للدكتور نبيل صبحى ص٣٥ وما بعدها .

من هنا نجد أن الأساس الذى بنى عليه دارون هذا المبدأ باطل كما أن الانتخاب الطبعي يتعارض مع قوانين الوراثة حيث زعم دارون أن الصفات التى يكتسبها الكائن تورث للنسل بعد فترة من الزمن لكن هذا الزعم عليه ملاحظات من شأنها أن تثبت خطأه .

هذا ولقد تأكدت فكرة عدم وراثة الصفات المكتسبة وعدم وجود أدلة يقينية فى النصف الثانى من القرن العشرين .

يقول ريشينباخ : « هناك أمران نستطيع اليوم أن نقررهما على نحو قاطع : أولهما أن جميع الشواهد التجريبية المتوافرة اليوم تكذب القول بوارثة الصفات المكتسبة ، وثانيهما أن الداروينية لا تحتاج إلى أية مسلمة من هذا النوع » .(١)

هذا ومن الانتقادات التى وجهت إلى مبدأ الانتخاب الطبعى ما يلى :

١ – إن الواقع المشاهد يتنافى مع الانتخاب الطبعى وبقاء الأصلح فإن الكون لا يزال يعج بالأصلح والصالح وغير الصالح من شتى أصناف الحيوانات بدءا بالهلاميات إلى القردة فالإنسان فالضعيف ما يزال يعيش بجانب القوى .

٢ – لا خلاف أن كل نوع من الحيوانات تطرأ عليه خسائر ضخمة مع الزمن بسبب عوامل طبيعية مختلفة تتغلب عليها . هذه حقيقة مشاهدة لا تنكر ، أما أن تكون الكارثة نتيجة تسابق وتنافس ينتهيان بانتخاب الأنسب والأقدر فهذه مسألة أخرى . إن كلا من الموت والنجاة كثيرا ما يكون عائدا إلى المصادفة المجردة ، لا إلى صفات خاصة فى الفرد ، فالمستنقع العظيم الذى يجف ،

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص١٧١ نقلا عن : الفكر المادى الحديث ص١٧٤ .

والموجة الهائلة التى تتدفق على الرمل يتركان بعدهما ألوفا من الجثث ، وتنجو من الكارثة طائفة أخرى ، ولكن لا الموت اصطفى الضعفاء ، ولا النجاة اختارت لنفسها الأقوياء ، بل الأمر كله جاء على المصادفة .

٣ – إن الموت يتناقص هو الآخر مع ما يراه دارون فأى بقاء يتم للأصلح إذا كان الموت يتربص به .

٤ – إن عملية الانتخاب ليست حركة آلية ، سواء أكانت طبيعية أم صناعية بل هى وسيلة تستهدف غاية ، والسعى نحو غاية ما ، يعتبر أعقد عمليات الفهم والإدراك ، فكيف يمكن إسناد ذلك إلى الطبيعة التى لا مناص من تفسير عملها وآثارها مهما تنوعت التعابير عنها بالآلية والعشوائية المجردة ؟

ثم إن انتخاب الأصلح لابد وأن يعتمد على قانون يميز الأصلح ممن دونه ويعلل ذلك ويوجهه ،فعلى أى قانون تستند الطبيعة فى انتخابها وما هو التعليل الذى هضمته الطبيعة لذلك ثم انطلقت متأثرة به ؟ (١)

الداروينية الحديثة :

اضطرب أصحاب الداروينية الحديثة أمام النقد العلمى الذى وجه إلى النظرية ، ولم يستطيعوا أمام ضعفها إلا أن يخرجوا بأفكار جديدة تدعيما لها وتدليلا على تعصبهم الشديد حيالها ، فأجروا سلسلة من التبديلات منها :

١ – إقرارهم بأن قانون الارتقاء الطبيعى قاصر عن تفسير عملية التطور

(١) انظر : كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد البوطى ص٢٦٠ وما بعدها ، نظرية التطور عند مفكرى الإسلام ص٢٣٨ وما بعدها .

واستبدلوه بقانون جديد أسموه قانون التحولات المفاجئة أو الطفرات * ، وخرجوا بفكرة المصادفة .

٢ – أرغموا على الاعتراف بأن هناك أصولا عدة تفرعت عنها كل الأنواع وليس أصلا واحدا كما كان سائدا فى الاعتقاد .

٣ – أجبروا على الإقرار بتفرد الإنسان بيولوجيا رغم التشابه بينه وبين القرد ، وهى النقطة التى سقط منها دارون ومعاصروه .

٤ – كل ما جاء به أصحاب الداروينية الحديثة ما هو إلا أفكار ونظريات هزيلة أعجز من أن تستطيع تفسير النظام الحياتى والكونى الذى يسير بدقة متناهية بتدبير الحكيم (١) . ﴿ الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ﴾ (٢) .

---

* الطفرة هى : صفة وراثية تحدث فجأة دون مقدمات ولكن فرصة حدوثها نادرة جدا فى أغلب الأحوال . مثال ذلك رجل أزرق العينين تزوج بامرأة زرقاء العينين وهما من سلالة نقية فى هذه الصفة . وتبعا لقوانين الوراثة لابد أن نسلهما يكون على الدوام من ذوى العيون الزرقاء أيضا . ولكن يحدث أن ينجب مثل هذين الزوجين فجأة طفلا ذا عيون سوداء . هذه المباينة حدثت نتيجة لطفرة .

ولقد اكتشف ظاهرة الطفرة عالم النبات الهولندى « هوجودى فريز » خلال أبحاثه لاستنباط أنواع جديدة من الأزهار . وتعرف الطفرة بأنها التغير الفجائى فى طبيعة العامل الوراثى الذى ينشأ عنه تغيير فى ظهور الصفة الوراثية . هذا ولقد أدى اكتشاف الطفرة إلى تقديم أجل الخدمات لنظرية التطور حيث استغلت هذه الظاهرة فى شرح قانون الانتخاب الطبعى ، حيث إن الطفرة تزود الكائنات الحية بالتغيرات الوراثية اللازمة لعملية الانتخاب الطبعى . والانتخاب هو عملية « تصفية » لاختيار الصفات الوراثية التى تتلاءم مع البيئة المحيطة بالكائن .

انظر : قصة التطور ص٩٤ ، نظرية التطور بين العلم والدين ص٤٦ وما بعدها .

(١) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة ص٢١٦ وما بعدها .

(٢) جزء الآية ﴿ ٥٠ ﴾ من سورة طه .

نظرية التطور بين القبول والرفض :

لقد تباينت الآراء حول هذه النظرية بالرغم من أنها لازالت عرضة للتغير والتبديل والنقد فى الغرب والشرق . ومع ذلك فإن بعض الباحثين يقبلها قبولا تاما ويؤمن بها إيمانا جازما حتى أنهم حاولوا تطويع النصوص الدينية تطويعا كاملا وتأويلها بحيث تتفق مع نظرية التطور العضوى . والبعض الآخر رفضها رفضا تاما وحاول تأويل النصوص وتطويعها لتتفق مع هذا الرفض . وهناك اتجاه ثالث محايد يرى أن هذه النظرية إن صحت فهى ليست ضد الدين ولا تتنافى مع الإيمان ، وإن قالت أن الإنسان حيوانى ثديى من قبيلة الرئيسيات وأنه يشترك مع القرد فى مرتبة واحدة .

ومن الذين أيدوا نظرية التطور العضوى فى الشرق بعض المسيحيين منهم الدكتور « شبلى شميل » فى كتابه « شرح بخنر على دارون » والدكتور « بشارة زلزل » فى كتابه « تنوير الأذهان فى علم حياة الحيوان » . والأستاذ « عبد الكريم الخطيب » فى كتابه « التفسير القرآنى للقرآن » والشيخ « طنطاوى جوهرى » فى كتابه « الجواهر فى تفسير القرآن الكريم » .[1]

هذا ولقد كان « لشبلى شميل » أثر قوى وفاسد فى الفكر المصرى وخصوصا فى الأوساط العلمية . كما كان سببا فى إلحاد الكثيرين ونظرهم إلى الكون نظرة مادية غالية ترفض الأديان وترفض صلاحها فى توجيه المجتمعات وتعتنق الفكرة القائلة بأن العلم وحده كفيل بتحصيل رخاء المجتمع وقوته . وبعضهم برئ من المادية بعد فترة من فترات عمره . ولكن بعد أن روج للأفكار المادية الملحدة

(١) انظر : نظرية التطور عند مفكرى الإسلام ص٢١٦ .

بشتى الوسائل مثل الدكتور « مصطفى محمود » حيث يقول : « وغرقت فى مكتبة البلدية بطنطا وأنا صبى أقرأ « لشبلى شميل » و« سلامة موسى » وأتعرف على « فرويد » و« دارون » وشغفت بالكيمياء والطبيعة والبيولوجيا وكان لى معمل صغير فى غرفتى أحضر فيه غاز ثانى أكسيد الكبريت ، وأقتل الصراصير بالكلور ، وأشرح فيه الضفادع . وكانت الصيحة التى غمرت العالم هى العلم .. العلم .. العلم .. لا شئ غير العلم . النظرة الموضوعية هى الطريق ، لدرفض الغيبيات ولنكف عن إطلاق البخور وترديد الخرافات ، من يعطينا دبابات وطائرات ويأخذ منا الأديان والعبادات » .[1]

هذا ولقد وقع أيضا « إسماعيل مظهر » قبل الدكتور « مصطفى محمود » تحت تأثير « شميل » و« بخنر » وكتاب « فلسفة النشوء والارتقاء » الذى يحتوى على شرح « بخنر » على مذهب « دارون » وأبحاث يدافع بها « شميل » عن نظرية التطور فى صورتها المادية ويثبت فيها آراءه المادية الأخرى .[2]

ويصور « إسماعيل مظهر » حالته أثناء تأثره بقوله : « وقعت فى يدى نسخة من كتاب الدكتور « شميل » « فلسفة النشوء والارتقاء » فأحدثت قراءتها فى ذهنى من الانقلاب ما يعجز قلمى عن التعبير عنه أو وصفه فدلفت بقدمى فى مفازة الآراء المادية . والحق أنها مفازة كثيرة الأشواك موحشة مجرودة صماء ، عانيت فى اجتيازها أشد ما يعانيه كل من تعمد مثل هذه الأسفار الطويلة من

---

(١) مجلة صباح الخير ص٣١ - ٢٩ العدد ٧٧٣ الصادر فى أكتوبر ١٩٧٠م نقلا عن : الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه للدكتور محمود عثمان ص١٩٨ .

(٢) الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ص١٩٨ وما بعدها .

مشقات يتلقفه فيها الشك بعد اليقين ، ويفرضه فيها اليقين شيئا من الطمأنينة والهدوء بعد أن يعنته الشك وتقتله الريب ، .(١)

ويقول : « خرجت من مطمأن تلك الأحلام إلى إنكار الخالق ، وإلى الفناء المطلق بعد الموت وتقطعت بى على يد « شميل » و« بخنر » كل أسباب الاتصال بذلك العالم العلوى » .(٢)

و« إسماعيل مظهر » وإن تأثر بنظرة « شميل » المادية فترة من حياته إلا أنه استطاع أن يخرج منها ويؤمن بوجود علة أولى مدبرة للكون ، ولكنه ظل مؤمنا بنظرية التطور مجردة عن المادية التى ظهرت فى كتاب « بخنر » ودفاع « شميل » عنه . ولقد عرض وجهة نظره هذه فى كتابه « ملقى السبيل فى مذهب النشوء والارتقاء وأثره فى الانقلاب الفكرى الحديث » عام ١٩١٤م .(٣)

هذا ومن الذين رفضوا نظرية التطور الشيخ « جمال الدين الأفغانى » فى كتابه « الرد على الدهريين » وكان كتابه ردا مباشرا على هذه النظرية فقد بين أن المذاهب والفلسفات المادية تجلب الفساد والخراب على المجتمعات الإنسانية ، وأن صلاح البشر لا يتأتى إلا عن طريق الأديان على وجه العموم ، والدين الإسلامى على وجه الخصوص .

ومن الرافضين كذلك لنظرية التطور « إبراهيم الحورانى » فى كتابه « مناهج الحكماء فى نفى النشوء والارتقاء » و« الحق اليقين فى الرد على بطلان

---

(١) ملقى السبيل ص٥ نقلا عن : المرجع السابق .
(٢) أصل الأنواع ٩/١ نقلا عن : المرجع السابق .
(٣) انظر : الفكر المادى الحديث ص١١٩ .

دارون ، والشيخ ، محمد رضا آل العلامة التقى الأصفهانى ، فى كتابه ، نقد فلسفة دارون ، و، أبو الأعلى المودودى ، والشيخ ، مصطفى صبرى ، .[1]

ويعقب بعد ذلك الدكتور محفوظ عزام فيقول : ، وكان ينبغى على هؤلاء وأولئك قبل أن يرفضوا أو يؤيدوا أو يحايدوا أن يناقشوا هذه النظريات على المستوى العلمى وأن يتفهموا نقد مفكرى الغرب لها حتى تكون أحكامهم صحيحة ، [2] .

مسألة خلق أبى البشر آدم – عليه السلام – من خلال القرآن الكريم :

لقد أكدت نصوص القرآن الكريم وهى بصدد الحديث عن خلق الإنسان ونشأته أنه خلق خلقا مستقلا * لم يتحول أو يتطور عن كائنات أخرى كما زعم أصحاب النظرية الداروينية . فالإنسان فى القرآن الكريم لم يخلق نفسه بنفسه كما أنه لم تخلقه العناصر التى ركب منها ، وإنما خلقه خالق كل شئ وهو الله – سبحانه وتعالى – .

---

(١) انظر : نظرية التطور عند مفكرى الإسلام ص٢١٦ وما بعدها ، والإنسان فى القرآن للعقاد ص٩٥ دار نهضة مصر .

(٢) نظرية التطور عند مفكرى الإسلام ص٢١٧ .

* كذلك قررت الأديان السماوية السابقة أن الإنسان خلق خلقا مستقلا فقد جاء فى سفر التكوين فى الإصحاح الأول من الكتاب المقدس – عند أصحابه – ، وقال الله لتنبت الأرض عشبا وبقلا يبذر بذرا وشجرا ذا ثمر يعمل ثمرا كجنسه بذره فيه على الأرض ، (١١) .
، فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التى فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذى جناح كجنسه ، (٢١)
، وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها ، (٢٤) .

يقول الحق – عز وجل – : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (١) .

وقال – سبحانه وتعالى – : ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه وهو على كل شئ وكيل ﴾ .(٢)

ولقد قرر الإسلام أن آحاد الجنس البشرى سواء أكانوا ذكورا أم إناثا ينتمون إلى الإنسان الأول سيدنا آدم – عليه السلام – وهذا هو الذى عبر القرآن الكريم عنه بالنفس الواحدة حيث قال الحق – جل وعلا – : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء ﴾ .(٣)

هذا ولقد صرح القرآن الكريم بخلق آدم – عليه السلام – فى أعلى درجات النضج البشرى خلاف ما يدعيه التطوريون بأن الإنسان البدائى كان فى أدنى مراحل المعرفة وظل يتعلم من الحيوان إلى أن صار إلى ما هو عليه الآن .(٤)

ولذا فقد أمر الله – عز وجل – الملائكة أن يتعلموا منه بعد أن علمه الله – سبحانه وتعالى – .

يقول – عز وجل – : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال

(١) الآية ﴿ ٢١ ﴾ من سورة البقرة .
(٢) الآية ﴿ ١٠٢ ﴾ من سورة الأنعام .
(٣) من الآية ﴿ ١ ﴾ من سورة النساء .
(٤) انظر : الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص٦٣ .

إنى أعلم مـا لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنيب أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .(١)

فـهذا الحـوار الذى دار من خـلال الآيات الكريمة يعطى دلالة على التكريم فى أعلى صوره لهذا المخلوق الذى قال الملائكة عنه أنه سوف يفسد فى الأرض ويسفك الدماء . لكن الله – عز وجل – وهبه سر المعرفة بالإضافة إلى سر الإرادة المستقلة التى تختـار الطريق القويم . كـما أن ازدواج طبيعـة آدم من الطين ومن الروح ، وقدرته على تحكيم إرادته فى شق طريقه ، ثم اضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة ، إن كل هذا بعض أسرار تكريمه .(٢)

كما أن ما ذكره القرآن الكريم عن خلق آدم – عليه السلام – يقتضى أن خلقه ثم بمعجزة خارقة لا تتفق مع السنن العادية ، كما تقضى بذلك نظرية التطور – إن صحت – وإنما على نحو خارق لهذه السنن . وهذا ما دل عليه قول الحق – تبارك وتعالى – ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ .(٣)

هذا ولقد استدل البعض * بطريق الخطأ قائلين إن الآيات القرآنية تؤيد

---

(١) الآيات ﴿ ٣٠ – ٣٣ ﴾ من سورة البقرة .

(٢) انظر : فى ظلال القرآن لسيد قطب ٥٧/١ دار الشروق الطبعة الحادية عشر ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

(٣) الآيتان ﴿ ٥٩ ، ٦٠ ﴾ من سورة آل عمران .

* هو الدكتور مصطفى محمود فى إحدى حلقات برنامجه الأسبوعى « العلم والإيمان » ويمكن الرد على ما أثاره إزاء مسألة التطور بدائل تكريم بنى آدم التى تتنافى مع مسألة التطور عن الكائنات الأخرى .

مسألة التطور مثل قول الحق – عز وجل – : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا ﴾ [1] وقوله – سبحانه – : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .[2]

والحقيقة أن هاتين الآيتين الكريمتين وغيرهما كثير فى القرآن الكريم تتحدثان عن الإنسان منذ أن كان نطفة إلى أن أصبح إنسانا مكتمل التكوين مزودا قبل الله – تعالى – بخصائص معينة تظهره فى أحسن صورة ولا مجال للتداخل على الإطلاق بين الحيوان والإنسان ، لأنهما خلقان مستقلان .

والأطوار التى يمر بها الإنسان وهو فى بطن أمه أو بعد خروجه للحياة لا تمت للتطور الذى يتحدث عنه الماديون بصلة . فهذه الأطوار لا تعدو أن تكون نموا للإنسان بين النطفة إلى العلقة إلى المضغة وهذه الأطوار لم تخرجه عن كونه إنسانا فيه مقومات الإنسان .[3]

كما يشير إلى هذا أيضا موريس بوكاى حيث يقول : « إن مقولات القرآن عن التناسل البشرى تعبر فى ألفاظ بسيطة عن حقائق أولية أنفقت البشرية مئات من السنين لمعرفتها » .[4]

وكلمة « أطوارا » التى وردت فى الآية الكريمة لا تتعلق بمراحل تعنى تحول

---

(١) الآيتان ﴿ ١٣ ، ١٤ ﴾ من سورة نوح – عليه السلام .
(٢) الايات ﴿ ١٢ – ١٤ ﴾ من سورة المؤمنون .
(٣) انظر : فى ظلال القرآن الكريم ٤/٢٢٥٧ ، ٢٢٥٨ ، ٢٢٥٩ .
(٤) الأسفار المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص٢٣٤ .

الكائنات من نوع إلى نوع آخر ، أو تطور الإنسان فى بداية ظهوره من كائن حى سابق عليه . وإنما تتعلق بمراحل فرعية خاصة بالإنسان بصفة عام ، وسيدنا آدم – عليه السلام – حيث إن خلقه تم بمعجزة خارقة لا تتفق والسنن العادية بل تم بالأمر التكوينى . وهذا الأمر لا يتصوره الماديون فضلا عن أن يؤمنوا بوقوعه . وما حدث لسيدنا آدم – عليه السلام – حدث مثيله لسيدنا عيسى – عليه السلام – من حيث الإعجاز الخارق فى الخلق .

والمراحل الفرعية التى مر بها خلق آدم – عليه السلام – والتى تعتبر خاصة به تتمثل فى الآتى :

١ – مرحلة التراب .

٢ – مرحلة الطين .

٣ – مرحلة الحمأ المسنون .

٤ – مرحلة الصلصال .

٥ – مرحلة التسوية .

٦ – مرحلة النفخ من روح الله – تعالى – .

ونستطيع التعرف على هذه المراحل من عرض الآيات القرآنية الكريمة :

١ – قال – عز وجل – : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .[1]

(١) الآية ﴿ ٥٩ ﴾ من سورة آل عمران .

٢ - قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ .(١)

٣ - قوله - جل شأنه - : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ .(٢)

أما بنو آدم فقد تفردوا أيضا بمراحل فرعية خاصة بهم تتمثل فى مرحلتين :

الأولى : مرحلة الحياة الجنينية داخل أرحام الأمهات .

الثانية : مرحلة الحياة الجنينية بعد الخروج من الأرحام والبقاء على وجه الأرض .

ففى المرحلة الأولى وهى « كون الإنسان جنينا » يمر بعدة مراحل : النطفة ثم العلقة فالمضغة فالهيكل العظمى وأخيرا اكتساؤه باللحم ثم إنشاء الجنين خلقا آخر بالتسوية والنفخ من روح الله .

قال - تعالى - ﴿ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .(٣)

---

(١) الآية ﴿ ١٢ ﴾ من سورة المؤمنون .
(٢) الآيتان ﴿ ٢٨ ، ٢٩ ﴾ من سورة الحجر .
(٣) الآيتان ﴿ ١٣ ، ١٤ ﴾ من سورة المؤمنون .

وقد جاء فى السنة النبوية المطهرة ذكر لهذه المراحل حيث قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » .(١)

ثم بعد الانتهاء من المرحلة الجنينية وخروج بنى آدم إلى الحياة تكون لهم أطوار جديدة يمرون بها تعتبر مراحل فرعية أخرى تتمثل فيما يلى :

١ – أن يظل الإنسان فترة ما طفلا رضيعا .

٢ – يصير صبيا صغيرا .

٣ – ثم يصير شابا يافعا .

٤ – ثم رجلا ناضجا .

٥ – ثم ينتهى عهده بالدنيا كهلا شائخا .

ولقد أجمل القرآن الكريم هذه المراحل حيث قال – تعالى – : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ .(٢)

فى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقول إن كلمة « أطوارا » لا تنال من قيمة استقلال نشأة الإنسان عن غيره من الكائنات السابقة فالإنسان خلق خلقا مستقلا .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ١٦/١٩٠ ، ورواه البخارى بلفظ آخر فى كتاب بدء الخلق ٤/١٣٥ .

(٢) الآية ﴿ ٥٤ ﴾ من سورة الروم .

كما أن حقيقة استقلال النشأة الإنسانية تزداد وضوحا ورسوخا عندما نجد أن الله – سبحانه وتعالى – سخر كل ما فى الكون لخدمة الإنسان وسيادته على جميع الكائنات بل وتفضيله على سائر الكائنات .

يقول الحق – جل وعلا – : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .(١)

وهذه السيادة وهذا التكريم الذى منحه الله – سبحانه – لبنى الإنسان هو فى مقابل العبودية الخالصة له – جل شأنه – .

قال – تعالى – : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .(٢)

هذا ومما يؤكد حقيقة استقلال بنى الإنسان هو تفردهم بأخذ العهد الإلهى عليهم وهم فى عالم الذر قبل ظهورهم إلى العالم وإقرارهم بوحدانية الله إلى يوم القيامة . حيث قال الحق – عز شأنه – : ﴿ وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ .(٣)

ومما يدلل أيضا على بطلان صحة ما ذهب إليه أصحاب النظريات الداروينية من عدم استقلال نشأة الإنسان وأن الكائنات تطور بعضها عن بعض إلى أن وصلت إلى الإنسان ما ذكره القرآن الكريم حيث قال الحق – عز وجل – : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على

(١) الآية ﴿ ١٣ ﴾ من سورة الجاثية .
(٢) الآية ﴿ ٥٦ ﴾ من سورة الذاريات .
(٣) الآية ﴿ ١٧٢ ﴾ من سورة الأعراف

رجلين ومنهم من يمشى على أربـع يخلق الله مـا يشـاء إن اللـه على كل شئ قدير ﴾ .(١)

فـهـذه الآية الكريمة تقـرر ، أن الله خلق كل شئ وأبدع الأشيـاء بإرادته ، وخلق كل حى يدب من أصل مـشـتـرك هو الماء ، لذلك لا يخلو الحى منه ، ثم خالف بينهما فى الأنواع والاستعدادات ووجوه الاختلاف الأخرى ، فمن الدواب نوع يزحف على بطنه كـالأسـماك والزواحف ، ومنهـا نوع يمشى على رجليه كالإنسان والطير ، ومنها ما يمشى على أربع كالبهائم ، يخلق الله ما يشاء من خلقه على أية كيفية تكون للدلالة على قدرته وعلمه، فـهو المريد المختـار وهو القادر على كل شئ ، .(٢)

فمن خلال الآية الكريمة السابقة نؤمن باستقلال كل الكائنات بخلق وهيئة خاصة بكل كائن على حدة . وهذا إن دل على شئ فإنما يدل وبما لا يدع مجالا للشك على مدى بطلان نظرية دارون .

ومما يدلل أيضا على بطلان هذه النظرية أن العلم قد أثبت فساد ما ذهب إليه دارون وأذنابه .

حيث أكد الدكتور بيربيرسون * أنه ، بالاستناد إلى المقارنات الطويلة التى أجراها بين عناصر الخلايا التى تحدد أصول الوراثة أن الإنسان لم ينحدر من القرد وأنه لم تعد هناك حاجة تدعو لدراسة ظهور القرد وتطوره على سطح

---

(١) الآية ﴿ ٤٥ ﴾ من سورة النور .
(٢) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ص٥٢٦ .
* أخصائى فى علم الوراثة فى جامعة أكسفورد .

الأرض بغية التأكد من طبيعة الإنسان الحقيقية . فقد أصدر الدكتور بيربيرسون مع ثلاثة من زملائه قانونا اشتهر باسم قانون القرد . حظروا فيه على المدارس والجامعات أن تدرس المذهب الداروني - مذهب النشوء والارتقاء - وذلك لبطلان النظرية التى كانت تقول إن الإنسان هو الحلقة الأخيرة من تطور انطلق من أول أنواع القرود مرورا بالشمبانزى والغوريلا حتى الأوران أوتان التى تشبه الإنسان إلى حد كبير . وقد تبين أن فرضية الدكتور بير بيرسون قد أيدتها الاكتشافات الأخيرة فى أفريقيا . وبالجملة فقد أصبح العلماء الآن عن طريق الكشوف الأثرية وتقريرات العلم الحقيقى - لا الفلسفة - متأكدين مما جاء به الدين الحق وجاء به الإسلام من أن الإنسان خلق خلقا مستقلا بل وأنه سيد المخلوقات » .(١)

وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ .(٢)

هذا ولقد تآزرت أدلة العلم مع أدلة الدين الحق على فساد نظرية دارون ، وأنها أسطورة انهارت وصدقت الكشوف الأثرية رأى الدين فى أن الإنسان خلق من جنس مستقل .

وقد قررت أحد البحوث التى تدور حول أصل الإنسان ما قرره الإسلام منذ أربعة عشر قرنا ويزيد .

ففى الأنباء العلمية الأخيرة يدور الآن الحديث عن نظرية أثارت ضجيجا كبيرا ، هى نظرية « السوسيون بيولوجى » أو علم الأحياء الاجتماعى » تقول مجلة

(١) سقوط نظرية دارون لأنور الجندى ص٢٢ وما بعدها دار الاعتصام .
(٢) جزء الآية ﴿ ٥٣ ﴾ من سورة فصلت .

« الأبزرفر » الصادرة فى واشنطن ونقلته عنها جريدة الأهرام الصادرة فى القاهرة فى ٣٠ / ١٢ / ١٩٧٨م ما نصه : « منذ أن ألقى البروفيسور جورج شتايدر أستاذ الكيمياء فى جامعة بيل الأمريكية بحثا له فى أحد المؤتمرات عام ١٩٦٩م واستخدم فيه مصطلح « سوسيولوجى » بدأ العلم الجديد الذى حوله باحثون إلى « نظرية » جديدة لتفسر الوجود « الاجتماعى البيولوجى » للإنسان تفسيرا واحدا يهدف إلى ترسيخ حقيقة أكدتها الأديان السماوية ببساطتها الصافية من قبل وهى أن الإنسان متميز عن الكائنات الحية جميعها . قد يشترك معها فى بعض الصفات الفسيولوجية ، ولكنه يختلف عنها ويتميز وحده بصفات بيولوجية أساسية ، ثم بالعقل والقدرة على صنع الأدوات لأهداف محدودة واختراع اللغة واستخدامها ، وبالتنظيم الاجتماعى » .(١)

وما دمنا قد تحدثنا عن مسألة خلق سيدنا آدم – عليه السلام – فإنه يجدر بنا أن نتعرض لما ظهر فى الأونة الأخيرة عام ١٩٩٨م حيث قال بعض الباحثين * فى أحد مؤلفاته : « إن آدم – عليه السلام – ليس أبا للبشر وإنما هو أبو الإنسان » – هذا وسوف نعرض لهذا الموضوع بإيجاز – واعتقد فى أن هذه الدعوى ستكون سندا لأصحاب نظرية التطور حيث إن هذا الباحث قد ذهب إلى أن البشر الأول عندما خلقوا كانوا بلا سمع ولا بصر ولا فؤاد ، ثم جعلت لهم هذه الأدوات فى مراحل التسوية المتطاولة حيث شاءت القدرة الإلهية أن تزود هذا المخلوق بما يحتاج إليه من أدوات الكمال .

---

(١) نقلا عن : الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص٦٤ .

* هو الدكتور عبد الصبور شاهين فى كتابه « أبى آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة » وقد تولى الرد عليه « عبد الله الموجان » فى كتابه « آدم أبو البشر » .

يقول الدكتور عبد الصبور شاهين : « إن منطوق القرآن ومفهومه يؤكدان وحدة المشروع الذى بدأ بأول بشر خلق من طين . ﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ (١) ولا مانع فى نظرنا من أن نتصور البشر الأول بلا سمع ولا بصر ولا فؤاد ، ثم كان ذلك فى مراحل مختلفة على طريق استكمال مقومات هذا الخلق البشرى ، وقد سبقت الإشارة إلى مغزى هذه المرحلة ، واللغة من أخطر مقومات هذا الخلق ، ويبدو أنها بلغت أنها بلغت درجة من الكمال فى المرحلة الآدمية الحاسمة ، حتى تفوق آدم على الملائكة فى أول اختبار » .(٢)

لكن لما كان هذا يخالف النص القرآنى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ (٣) فقد قام الدكتور عبد الصبور شاهين بالتفرقة بين الإنسان والبشر ، حيث جعل الإنسان من عهد آدم – عليه السلام – والبشر مَنْ كانوا قبله . وذكر الآية الكريمة القائلة : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (٤) ثم قال : « إن هذا البيان الإلهى نداء إلى جميع الناس يذكرهم بوحدة الأصل ، فهم جميعا قد نسلوا من ذكر وأنثى ، هما آدم وزوجه حواء ، باعتبارهما أول من تألقت فيه صفات الإنسان من سلالات البشر ، ولا التفات إلى ما سبقهما من السلالات والأجيال ، فهما فى الواقع المنبع الذى تدفقت منه جماعات الناس على هذه الأرض ، من بنى آدم أى : من ظهره ، وقد جعلهم الله شعوبا وقبائل ، فهم من أصل واحد ، ووجود متنوع ... » .(٥)

---

(١) الآية ﴿ ٨ ﴾ وجزء الآية ﴿ ٩ ﴾ من سورة السجدة .
(٢) أبى آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة ص١١٦ الروافد الثقافية .
(٣) الآية ﴿ ٤ ﴾ من سورة التين .
(٤) الآية ﴿ ١٣ ﴾ من سورة الحجرات .
(٥) أبى آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة ص٩٧ وما بعدها .

ثم يذكر الدكتور عبد الصبور شاهين ذلك مرة ثانية ويصرح قائلا : « أما الإنسان فلا يطلق بمفهوم القرآن إلا على ذلك المخلوق المكلف بالتوحيد والعبادة لا غير ، وهو الذى يبدأ بوجود آدم – عليه السلام – وآدم على هذا هو أبو الإنسان وليس أبا البشر ، ولا علاقة بين آدم والبشر الذين بادوا قبله تمهيدا لظهور ذلك النسل الآدمى الجديد . اللهم إلا تلك العلاقة العامة أو التذكارية باعتباره من نسلهم » .(١)

ويرى الدكتور عبد الصبور شاهين أن العلماء قد أطلقوا على الأحافير التى وجدوها بطريق الخطأ أو التجاوز : « لقب إنسان فقالوا إنسان بكين ، أو إنسان جاوه ، أو إنسان كينا ، أو ما سوى ذلك من الإطلاقات التى تعنى مراحل تكوين البشر بإطلاق القرآن ، واستخدام كلمة إنسان فى وصف هؤلاء ليس إلا على سبيل التوسع ، كما استخدمت كلمة البشر للدلالة على معنى الإنسان توسعا أيضا ، وإلا فاللفظ الدقيق بلغة القرآن ، والذى ينبغى أن يستخدم فى تسمية تلك المخلوقات العتيقة التى تدل عليها الأحافير هو البشر ، فواجب أن يقال : بشر بكين ، وبشر جاوه ، وبشر كينا ... » .(٢)

وبناء على ما تقدم من حديث الدكتور عبد الصبور شاهين من أن آدم أبو الإنسان وليس أبا للبشر فقد تصور « أن آدم جاء مولودا لأبوين * وأن حواء جاءت كذلك » .(٣)

---

(١) المرجع السابق ص٩٨ .

(٢) المرجع السابق .

* وذكر الدكتور عبد الصبور فى هامش كتابه أن الشيخ رشيد رضا قد ذكر أن وثنى الهند يزعمون أن لآدم أما ، ولها فى مدينتهم المقدسة (بنارس) قبر عليه قبة بجانب قبة قبره (المنار ٣٠٨/٨) . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

(٣) أبى آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة ص١١٧ وما بعدها .

ولذلك فـقد قـام بعـقـد مـقـارنـات بين لفظـى (البـشـر والإنسـان) فى القـرآن الكريم واللغات الأخرى كـالأردية والفـارسـيـة والانجليـزيـة والفـرنسـيـة والتركـية [1] .... ولما وجد أن معنى البشرية استخدم بمعنى الإنسانية وبالعكس لجأ إلى التأويل مرة أخرى .[2]

هذا ولقد ذكر عبد الله الموجان فى هامش كتابه أن بعض أهل العلم يرى « أن البشر إشارة إلى البدن ، وأن الإنسان مجموع الروح والبدن معا ، ولذلك كان آدم بشرا ، فلما نفخ الروح فيه صار إنسانا ، لكن الدكتور عبد الصبور شاهين يرى وجود هذا البشر قبل آدم بملايين السنين ، ومن هنا كان الخلل فى تصوراته » .

ولقد ذكر الدكتور عبد الصبور شاهين أن البشر المتمثل للسيدة مريم المقـصـود به المخلوق على الإطلاق قـال تعـالى : ﴿ أنى يكون لى غـلام ولم يمسسنى بشر ﴾ [3] ومثيلتها فى سورة آل عمران حيث قال : « أى مخلوق على الإطلاق » [4] وهذا فرار من أن يكون المراد الإنسان .

وهنا يرد عبد الله الموجان قائلا : « وهذا الإطلاق باطل فإن المس المراد به فى الآية الجماع بدلالة السياق ولا يعقل أنها أرادت لم يمسسنى مخلوق بإطلاقه أى لم يمسسنى قرد ولا حمار ولا بعوض ولا ذباب .. فهذا واضح البطلان بل أوضحه [5] ، وكذلك فى قوله – تعالى – : ﴿ فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما ﴾ .[6]

---

(١) المرجع السابق ص٦٤ وما بعدها .
(٢) آدم أبو البشر لعبد الله الموجان ص٦٤ الروافد الثقافية .
(٣) جزء الآية ﴿ ٢٠ ﴾ من سورة مريم .
(٤) أبى آدم قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة ص٦٩ .
(٥) آدم أبو البشر ص٦٤ .
(٦) جزء الآية ﴿ ٢٦ ﴾ من سورة مريم .

هذا والحقيقة أنه لا فرق بين أبى البشر وأبى الإنسان وكما قال عبد الله الموجان : « هذا كله من وهم الدكتور فليس القرآن فقط هو النصوص الحقة ، بل السنة الصحيحة ، ولم تخف الحقيقة على أجيال العلماء ؛ لأنه فى الواقع لا فرق بين أبى البشر وأبى الإنسان » .(١)

ولقد ورد فى السنة المطهرة روايات كثيرة تصف سيدنا آدم – عليه السلام – بأنه أبو البشر .

فقد أخرج البخارى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « ... فيقول الناس ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم فيأتون آدم – عليه السلام – فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك ... » .(٢)

فقد وردت روايات كثيرة عن الصحابة – رضوان الله عليهم – فيها : (أنت آدم أبو البشر) .

هذا بالإضافة إلى أن كل نصوص الأحاديث تتحدث عن البشر والإنسان بمعنى واحد ففى حديث أبى سعيد الخدرى أنه قال بينما رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالس جاء يهودى فقال يا أبا القاسم ضرب وجهى رجل من أصحابك فقال من قال : رجل من الأنصار قال : ادعوه فقال : أضربته . قال :

---

(١) آدم أبو البشر ص٦٥ .

(٢) صحيح البخارى بحاشية الندى ١٤٩/٢ وما بعدها كتاب التفسير ، ٣٠٠/٣ كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ١٠٠/٢ دار إحياء الكتب العربية .

سمعته بالسوق يحلف والذى اصطفى موسى على البشر قلت أى خبيث على محمد – صلى الله عليه وسلم – فأخذتنى غضبة ضربت وجهه فقال النبى – صلى الله عليه وسلم – : لا تخيروا بين الأنبياء ... » .(١)

وأخرج البخارى عن أبى هريرة فى فضائل القرآن أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال : « ما من الأنبياء نبى إلا وأعطى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .(٢)

وأخرج مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة مرفوعا : « إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر » .(٣)

وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – إذا ذكر داود يُحدِّثُ عنه قال : « كان أعبد البشر » رواه البزار فى حديث طويلة وإسناده حسن .(٤)

وبعد أن أورد صاحب كتاب آدم أبو البشر هذه الأحاديث قال : « ولا يقال : إن بينهما العموم والخصوص المطلق كما زعم الدكتور ، فإن هذه دعوى يستدل لها ولا يستدل بها ، وكما ترى فإن آدم هو أبو البشر ، فلا فرق بين أبى البشر وأبى الإنسان . ثم إن الزعم بوجود فترة زمنية متراخية بين خلق الإنسان وتسويته لا تتمشى على منهج الدكتور ، فإنه رغم أنه يمكن تصور آدم خلق من أبوين من البشر أو من سلالات البشر قبله ، فلم يكن خلق آدم من تراب مباشرة .

وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال :

---

(١) صحيح البخارى بحاشية الندى ٢/٦٠ فى الخصومات ، ٣/١٣٠ كتاب التفسير .
(٢) صحيح البخارى بحاشية الندى ٣/٢٢٤ فضائل القرآن .
(٣) صحيح مسلم ٤/٢٠٠٨ كتاب البر والصلة والآداب حديث رقم ٢٦٠١ .
(٤) مجمع الزوائد لأبى بكر الهيثمى ٨/٢٠٦ باب ذكر نبى الله داود مكتبة القدس .

لما صور الله آدم فى الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به . ينظر ما هو . فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك » [1] ... فثبت أن خلق الإنسان هو خلق آدم ، وبدأ من طين لا من سلالة بشرية قبله ، ويدل على ذلك أيضا أن آدم – عليه السلام – مخلوق بيد الله – تعالى – ، كما قال – جل وعلا – : ﴿ لما خلقت بيدى ﴾ [2] فهو متشرف بخلقه بيد الله – تعالى – لا بالقدرة فحسب ، ووجود أبوين له ينافى ذلك » .[3]

ثم يبين بعد ذلك المراد من الطين والحمأ المسنون والصلصال فيقول عبد الله الموجان : « أما قوله – تعالى – : ﴿ ... سلالة من طين ... ﴾ فالطين والحمأ المسنون والصلصال كالفخار كلها أطوار فى خلق آدم ، كما أن النطفة والعلقة والمضغة أطوار فى خلق بنى آدم » .[4]

ثم يوالى عبد الله الموجان الرد على بطلان ما ذهب إليه الدكتور عبد الصبور شاهين فيقول : « ولقد أحس الدكتور بتورطه عند قوله – تعالى – : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك .﴾ [5] . فإن الفاء تقتضى التعقيب ، فتكون مرحلة التسوية عقب مرحلة الخلق لا متراخية نحو ملايين السنين كما زعم ، ولذا حاول تأويل الفاء بأنها متضمنة معنى ثم واعترف بأنها مشكلة » .[6]

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٠١٦ كتاب البر والصلة والآداب باب خلق الإنسان خلقا لا يتمالك . حديث رقم (٢٦١١) .
(٢) جزء الآية ﴿ ٧٥ ﴾ من سورة ص .
(٣) آدم أبو البشر ص ٦٦ وما بعدها .
(٤) المرجع السابق ص٦٧ .
(٥) الآيتان ﴿ ٦ ، ٧ ﴾ من سورة الانفطار .
(٦) آدم أبو البشر ص٦٧ .

ثم ينهى كلامه بعد ذلك قائلا : « إن البشرية من آيات الله – كما قال – تعالى – : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ [1] وقد جعل الله الدلائل والآيات والنذارة للبشر كما قال – تعالى – : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر ﴾ [2] وقال – تعالى – : ﴿ إنها لإحدى الكبر . نذيرا للبشر ﴾ [3] وقال – سبحانه وتعالى – عن النار : « لواحة للبشر . عليها تسعة عشر » .[4]

ووهذا كله مما يدل على التكليف ، فكيف بالبشر الذين زعم الدكتور أنهم كانوا قبل آدم وغير مكلفين ؟!! » .[5]

ويذكر الدكتور عبد الحليم محمود أن للشيخ محمد عبده رأيا فى تفسير قصة آدم فيقول : « إننا جميعا نجل الشيخ محمد عبده ، ونحترمه وندين له بكثير من تخليص الدين من الخرافات والأساطير . ولكن حينما نقرأ له تفسير قصة آدم فنراه لا يمنع احتمال أنها تمثيل ! نتساءل : لم ذكر الشيخ محمد عبده هذا الاحتمال ؟ حينما نتساءل عن حقيقة السر العميق – فى الشعور أو فى اللاشعور – نجد أن الشيخ محمد عبده رأى أن فكرة التطور منتشرة فى جميع أرجاء أوربا ، بل والعالم وهى – فيما يرى بظاهرها – تتعارض مع التعاليم التى تنبئ أن آدم هو أول البشر ، وهو الذى خلقه الله وسواه ، وخاطب الملائكة فى شأنه وأمرهم أن يسجدوا له » .[6]

---

(١) الآية ﴿ ٢٠ ﴾ من سورة الروم .
(٢) جزء الآية ﴿ ٣١ ﴾ من سورة المدثر .
(٣) الآيتان ﴿ ٣٥ ، ٣٦ ﴾ من سورة المدثر .
(٤) الآيتان ﴿ ٢٩ – ٣٠ ﴾ من سورة المدثر .
(٥) آدم أبو البشر ص٦٧ وما بعدها .
(٦) الإسلام والعقل للدكتور عبد الحليم محمود ص٢٢٨ دار المعارف الطبعة الثانية .

ويعرض الدكتور محمد سعيد البوطى زعم بعض المتصوفة حول سيدنا آدم – عليه السلام – حيث يدعون أنه كان مسبوقا بأداوم كثيرين غيره حيث يقول : « وإياك أن تلتفت إلى ما يقوله بعض المتصوفة ، من زعم أن آدم – عليه الصلاة والسلام – المذكور قصة خلقه فى القرآن كان مسبوقا بأوادم كثيرين غيره . ثم يذهبون يجرون ذيل الخيال فى تفصيل الحديث عن ذلك » .[1]

ثم يرد على هذا الزعم فيقول : « فهذا الادعاء مبنى على الحدس المجرد ، لا يدعمه دليل من الخبر الصادق القطعى ولا برهان يقينى من النظر العلمى . ومن الأدب مع كتاب الله – تعالى – وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن نكل علم ما لم يبينه الله – عز وجل – ولا رسوله إلى علم الله وحده ، اللهم إلا ما كان من ذلك خاضعا لوسائل البحث والتجربة والمشاهدة ، فقد دعانا كلام الله – تعالى – إلى البحث عن الحقيقة والتنقيب عن اليقين فى ذلك » .[2]

ثم يتحدث الدكتور محمد سعيد البوطى بعد ذلك عن النشأة الأولى للإنسان فيذكر أنه مخلوق منذ النشأة الأولى فى أتم مظهر وأحسن تقويم فيقول : « والحديث عن النشأة الأولى للإنسان ، لا يخضع هو الآخر لبراهين التجربة والمشاهدة المحسوسة ، إذ هو فى جملته حديث تاريخى ... ولو أن الله – عز وجل – لم يحدثنا بشئ قطعى فى هذا الصدد ، لما التزمنا فى شأنه بأى حكم نعتقده ونقطع به . لكن الخبر الصادق المتواتر وضعنا فى ذلك أمام ما لا مجال للشك أو الظن فيه . وهو قوله – تعالى – : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ [3] و« أل »

(١) كبرى اليقينيات الكونية ص٢٥٠ .
(٢) المرجع السابق ص٢٥٠ وما بعدها .
(٣) الآية ﴿ ٤ ﴾ من سورة التين .

الداخلة على الإنسان للاستغراق كما هو معلوم ، فهى عامة للأفراد كلهم . ومثل ذلك قوله – تعالى – : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك ﴾ (١) أى جعلك سويا مستقيما معتدل القامة منتصبها فى أحسن الهيئات والأشكال .

ومن مؤكدات هذه الحقيقة التى قررها القرآن ، ما روى فى الصحيحين عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « خلق الله آدم على صورته ... » أى أنه منذ خُلِقَ إنما كانت صورته هى الصورة ذاتها التى استمر عليها وعرف بها ، أى لم ينشأ متنقلا من شكل إلى آخر . فالضمير فى صورته راجع إلى آدم . وهناك رأى آخر يرى أن الضمير راجع إلى ذات الله – تعالى – والمقصود بالصورة الصفة أى خلقه عالما مريدا سميعا بصيرا ... وتلك هى صفات الله – تعالى – .

وسواء أعَدْت الضمير على آدم كما هو رأى الجمهور ويدل عليه ظاهر الحديث ، أم أعدته إلى ذات الله – تعالى – فالحديث تأكيد للدلالة القطعية فى القرآن ، إذ البحث فى معرض بيان تكريم الله لآدم منذ أول خلقه .

وإذا كان الأمر كذلك ، وجب أن نعلم بأن الإنسان لم ينتقل خلال تاريخه كله فى أى تطور نوعى . كأن يقال إنه ترقى من فصيلة إلى أخرى أو تدرج من مظهر نوعى فى الهيئة والشكل إلى مظهر آخر .

وهذا الحكم نتيجة قطعية للأمور الثلاثة التى ذكرناها عن الإنسان وهى : أنه أفضل المخلوقات وأشرفها . وأنها مخلوق من التراب ، ومتكاثر من آدم – عليه الصلاة والسلام – أى أنه خلق فى (نشأته الأولى) فى أحسن تقويم » .(٢)

---

(١) الآيتان ﴿ ٦ ، ٧ ﴾ من سورة الانفطار

(٢) كبرى اليقينيات الكونية ص٢٥١ وما بعدها

دلائل أفضلية الإنسان على كل المخلوقات :

لاشك أن الإنسان أفضل المخلوقات وأشرفها على وجه الأرض وذلك عن طريق عدة أدلة منها ما هو نقلى وآخر عقلى يثبت من خلالها أن الإنسان خلق خلقا مستقلا لم يتطور عن غيره من الكائنات أو عن القردة العليا كما زعم دارون وأشياعه .

أمـا الآية الكريمة الأولى من الأدلة النقلية فـهى قول الحـق – سـبحـانه وتعالى – : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ .[1]

فـإن هذه الآية الكريمة تدل على تشـريف الحق – عـز وجل – لبنى آدم وتكريمهم عن طريق خلقهم فى أحسن هيئة وأتم صورة وصدق اللـه العظـيم القـائل : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ [2] والمقصود بذلك أنه يمشى قائما منتصبا على رجليه يأكل بيديه بينما غيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بفمه ، وجعل الله له سمعا وبصرا وفؤادا يفقه بذلك كله ، وينتفع به ويفرق بين الأشياء ، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها فى الأمور الدينية والدنيوية . وفـضل الله الإنسـان على كـثـيـر ممن خلق من سـائر الحـيـوانـات وأصنـاف المخلوقات .[3]

---

(١) الآية ﴿ ٧٠ ﴾ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ﴿ ٤ ﴾ من سورة التين .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٥١ وما بعدها ، التفسير الكبير للفخر الرازى ٧/٣٧٢ وما بعدها دار إحياء التراث العربى بيروت .

وبعد أن سرد الإمام القرطبى عدة أشياء كرم الله بها الإنسان والتى منها اعتدال القامة ، حسن الصورة ، والنطق والتمييز قال : « والصحيح الذى يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذى هو عمدة التكليف . وبه يُعرف الله ويُفْهم كلامه ، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ؛ إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بُعثت الرسل وأنزلت الكتب » .(١)

وفى هذا الإطار أى التباين بين خلق الإنسان وخلق الحيوان يقول الدكتور أحمد زكى : « ..... إن الحيوان قوامه غير قوام الإنسان ، قوام الإنسان رأسىٌ، وقوام الحيوان أفقى . فعين الحيوان تتجه طبعا إلى أسفل إلى الأرض ... وحتى الإنسان فى قوامه الرأسى المعتدل ، إذا ألقى ببصره ألقاه أفقيا ، فهذا وضعه الطبيعى ... وسهل عليه أن يحنى رأسه إلى أسفل إلى الأرض ، وأن يحنيه بمعرفة عنقه ، إذ يحنى تسعين درجة ، فيرى بذلك ما عند قدمه . وسهل عليه أن يرفع رأسه إلى أعلى إلى السماء .

فالذى صمم * جسم الحيوان ، وركب هيكله ، كأنه لم يرد من هذا التصميم أن يتمكن الحيوان من النظر إلى السماء ، وذلك لأسباب عدة ؛ من أظهرها أنه مع عقله العاجز ؛ لا يستفيد من هذا النظر شيئا .

وعلى غير هذا الطراز صمم المصمم * جسم الإنسان ، وركب هيكله . فالإنسان عقل واع ، كثير الوعى ، وهو قادر كثير القدرة ، فهو يستفيد من النظر إلى السماء أكبر استفادة » .(٢)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٢٩٩/١٠ دار الحديث بالقاهرة .

* هذا اللفظ غير مقبول فالأولى أن يقول الخالق – عز وجل – لأن كلمة المصمم توحى بأننا نتحدث عن إنسان .... ؟!!

(٢) مع الله فى السماء نقلا عن : نظرية التطور بين العلم والدين ص١٣٧ وما بعدها .

أما الآية الثانية التى تثبت التكريم والأفضلية للإنسان فهى قول الله – عز وجل – : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ .(١)

فسجود الملائكة لآدم – عليه الصلاة والسلام – يدل على تكريم الله – عز وجل – له .

أما الاية الثالثة التى تثبت تكريم الله – عز وجل – للإنسان فهى التى تدل على تسخير كل القوى الكونية فى الأرض هى قوله – تعالى – : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا ﴾ .(٢)

أما الدليل العقلى الذى يدل على أفضلية الإنسان وتكريمه فهو ما يأتى :

أولا : أن النفس الإنسانية تمتاز عن سائر النفوس والموجودات الأخرى بتلك القوى المدهشة العجيبة ، ألا وهى القوة العاملة المدركة لحقائق الأشياء ، وهى بذلك أول مفتاح لتسخير كثير من مظاهر الكون للإنسان وجعلها تحت سلطانه .

ومن خصائص هذه القوة العاقلة أنها القوة التى يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ، ويشرق منها ضوء كبريائه ، فتهيئ صاحبها بذلك لممارسة العبودية لخالقها العظيم جل جلاله فيصبح الإنسان نتيجة لذلك أول مظهر لألوهية الله – عز وجل – .

---

(١) الآية ﴿ ٣٤ ﴾ من سورة البقرة .

(٢) جزء الآية ﴿ ١٣ ﴾ من سورة الجاثية .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن من لوازمه الواضحة أن تكون النفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة فى العالم ، باستثناء الملائكة نظرا للاعتبارات الاستثنائية بالنسبة إليهم .

ثانيا : ما نراه بالتجربة والمشاهدة من دلائل صدق قول الله – تعالى – : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾ (١) فأنت ترى أن كلا من حركة الفلك ونظام الكون ووظائف المكونات المختلفة – إنما يجرى وفقا لحاجة الإنسان وخدمته ، فالإنسان يمثل فى هذا الوجود الذى من حوله قطب الدائرة ، على حين تنجذب إليه مختلف الموجودات الأخرى فى تَطْواف دائب وسعى مستمر لتنسج له مقومات الحياة الفضلى وتهيئ له متطلباته وحاجاته المختلفة .

ومن لوزام ذلك أن يغدو هذا الكائن – الذى هذا شأنه مع سائر الموجودات ، وشأن سائر الموجودات معه – أفضلها وأشرفها على الإطلاق .

ثالثا : صفات ركّبها الله – تعالى – فى الإنسان هى فى جملتها فيوضات من صفات الربوبية ، كالعلم والقدرة والتكبُّر والنزوع إلى السيطرة والملك وغير ذلك .

وإذا ما أمعن الإنسان الفكر علم أن الإنسان إنما يؤمن بواسطة ما ركب فيه من هذه الصفات ، فبعلمه الجزئى المحدود يتصور علم الله الواسع الذى لا يحد ، وبقدرته الجزئية المحدودة يستطيع أن يتصور قدرة الله المسيطرة على كل شئ ، وبملكيته الصغيرة يتمكن من تصور ملك الله الواسع الذى يدخل فيه ما كان

(١) جزء الآية ﴿ ١٣ ﴾ من سورة الجاثية .

وما هو كائن وسيكون . ولولا ما أودع الله فيه من هذه الصفات ، لما تهيأ لإدراك عظمة الله – تعالى – وجليل سلطانه .

فإذا كان الإنسان فى حقيقته مستودعا لظلال أو فيوضات من صفات رب العزة – جل جلاله – ، فحريٌ به أن يكون أشرف المخلوقات وأكرمها .(١)

ويُنْهِي الدكتور محمد سعيد البوطى حديثه قائلا : « إن أفضلية الإنسان على سائر المخلوقات باستثناء الملائكة حقيقة ثابتة بالقطع . دل عليها الخبر الصادق المتواتر والبرهان العقلى الصحيح فوجب على المسلم أن يعتقد ذلك . وأما أفضليته على الملائكة ، فالأمر فى ذلك محتمل ، والأدلة ظنية ولذلك وقع الخلاف . ولعل الأسلم فيه أن نحيل حقيقة الأمر فى ذلك إلى علم الله – عز وجل – » .(٢)

موقف الكنيسة من نظرية التطور :

لقد كان لنظرية التطور أثر لا ينكر زلزل أوروبا والكنيسة ، فقد كانت أوروبا تعيش فى سكون دائم وجمود عام أوحى إلى العقلية الأوروبية الخاملة آنذاك بفكرة الثبات المطلق فى كل شئ . وقد كان للكنيسة دور كبير فى ذلك عن طريق طقوسها الجامدة ووقوفها ضد كل جديد فى ترسيخ هذه الفكرة وتعميقها .

ولقد كانت أول هزة أصابت هذه الفكرة هى « نظرية كوبونيق » بعد نشرها حيث إن دوران الأرض الذى نادت به هذه النظرية ناقض المسلمة البديهية – آنذاك – فى عصره وهى أنها ثابتة وما عليها ثابت .

---

(١) انظر : كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد البوطى ص٢٤٧ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ص٢٤٩ .

ولقد ظهرت بعد ذلك ، فكرة التطور العقلى لدى ، أوجست كونت ، من الخرافة إلى الدين إلى الوضعية ، وكذلك ظهرت لدى ، هوبز ، الذى يرى أن المجتمع الإنسانى تطور من الوحشية الغابية إلى الحالة الإجتماعية ، وكذلك ، روسو ، الذى قال بتطور المجتمع من الحالة الطبيعية إلى الحالة الفوضوية مما استوجب وجود عقد اجتماعى بين الأفراد . لكن هذه النظريات لم تكن من القوة والتعميم بحيث تزلزل فكرة الثبات كلية وإن كان لها الفضل فى التمهيد لذلك . وتمت هذه الزلزلة على يد ، دارون ، وبعده انتقلت أوروبا من الاعتقاد فى الثبات المطلق إلى الاعتقاد فى التطور المطلق ، .[1]

وقد كانت نظرية التطور ، اتجاها جديدا لم يسبق فى المسائل البشرية وما يتعلق بها ، تقلب تيار الفكر وتصرف الإنسان فى الاستعلام والاستهداء فى مسائله وفى تاريخه من الإنسان إلى الحيوان ، وتجعله يعتقد أن هذا الكون سائر بغير عناية إلهية ، وبغير أن تتداخل فيه قوة غير طبيعية ، وأن لا علة فى الكون سوى السنن الطبيعية ، وأن الموجودات ترتقى من مراتب الحياة الأولى إلى مراتبها العليا بعمل فطرى تدريجى عار عن العقل والحكمة ، وأن الإنسان وسائر أنواع الحيوان ليس من صنع صانع حكيم بل هو نتيجة نواميس طبيعية انتهى بها التنازع للبقاء وناموس بقاء الأصلح والانتخاب الطبعى الذى هو سائر فى الكون إلى إنسان ناطق ذى شعور ، .[2]

يقول ، جوليان هكسلى ، : ، وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان يستطيع

(١) وباء العلمانية للشيخ سفر الحوالى ص٥٢ مكتبة مدار السبيل الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .
(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسين الندوى ص١٧٠ مكتبة الإيمان .

تجنب اعتبار نفسه حيوانا ، وقد كان دارون بطل هذا الانقلاب التاريخى عندما قرر حيوانية الإنسان فنفى عنه تلك النفحة الإلهية التى رفعته عن مستوى الحيوان وهبطت به إلى الأرض لا يسمو إلى الملكوت الأعلى .

لذا اضطرب وفزع رجال الكنيسة من جراء هذه النظرية وما خلفته من ورائها من فلسفة مادية بحتة لا تعترف بأى شئ سواء أكان روحيا أم عقليا أم ميتافيزيقيا فهى لا تثق ولا تعترف إلا بالأشياء المحسوسة المادية .

ونظرا لأن هذه النظرية تعارض وتناقض الدين والعقل فى المبادئ والغايات والنتائج الفكرية والخلقية وآثارها العملية كانت واضحة . فقد كانت الكنيسة محقة فى فزعها ومخاوفها من جراء هذه النظرية وما ساد أوروبا من الموجة الإلحادية التى سيطرت على العقول آنذاك .

وقد كان من أهم سمات هذه النظرية حصر المعرفة فى الحواس فقط ، وبناء على ذلك رفض المعارف الدينية التى نتلقاها عن طريق الوحى والشرع .

هذا ولم يكن الإيحاء بحيوانية الإنسان هو الأثر الوحيد للدارونية الذى حط من كرامة الإنسان وقدره حيث زعم دارون ، أن الإنسان حيوان وجعل بينه وبين القردة نسبا ، بل زعم أن الجد الحقيقى للإنسان هو جرثومة صغيرة راكدة فى مستنقع آسن قبل ملايين السنين . بل اقترن به إيحاء آخر هو الإيحاء ، بمادية الإنسان ، أى خضوعه للقوانين المادية التى تفرض عليه ما تفرضه على المادة الجامدة من حيث التطور ، .[1]

---

(١) وباء الطمانية للشيخ سفر الحوالى ص٥١ .

تقويم النظرية :

لقد شغلت نظرية التطور أذهان العلماء وقتا طويلا لكن سرعان ما انكشفت الغمام وبدت حقيقة هذه النظرية أو كما – قال البعض – فكرة التطور باعتبار أنها لم ترق لأن تكون نظرية .

هذا ولم يقتصر خطأ هذه النظرية وخطرها على علم الأحياء وما يتصل به من جوانب العلوم الأخرى ، بل امتد ليشمل محالات أخطر بكثير من محالات الأحياء والعلوم كالأخلاق والسياسة والفن .

بل الأخطر والأخطر هو أن الملاحدة والزناقدة وأعداء الدين قد استخدموها كسلاح يشهرونه فى وجوه المتدينين باعتباره الدليل القاطع على عدم وجود الإلـه ، وأن الوجود بما فيه ومن فيه غنى عن وجوده حيث ادعت هذه النظرية أن الطبيعة المادية هى كل شئ والموجدة لكل شئ فى الكون ، بما فيه من إبداع وإتقان ، بل أن صاحب النظرية بعد أن استعمل كلمة « الخلق » بجانب الأحياء – مجاراة للرأى العام كما قال هو عن نفسه – يعلن أنه آسف أشد الأسف لاستعماله هذه الكلمة التى تدل على وجود إله خالق . وأن الأحياء من خلقه وصنعه ، وأن التنوع العجيب فى المخلوقات ، والاتقان والعناية فى كل مخلوق على حدة ، كل ذلك من خلق الله – عز وجل – وحكمته . أعلن الرجل « دارون » اعتذاره عن استعماله لفظة « الخلق » رغم أنه أعلن بوضوح أنه لم يستعملها عن عقيدة وإيمان ، بل « مجاراة للرأى العام » وأعلن رأيه النهائى فى هذا المجال ، وهو أنه لا حاجة فى هذا الكون إلى الإله ، وأن الطبيعة وحدها كافية لتفسير كل شئ فى الحياة .[1]

(١) انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة ص٣٥٤ وما بعدها .

لكن بالرغم مما آتاه صـاحب النظرية والملاحـدة الذين اتخـذوا من هذه النظرية سلاحا يحاربون به الدين والمتدينين ، فقد انهارت هذه النظرية وأصبحت أثرا بعد عين ، وأضحت مثالا لما يمكن أن ينتشر من ضلال ، ويرتكب من فساد باسم العلم وعلى أيدى من يسمون العلماء .

وقد قدر لهذه النظرية أن يكون القضاء عليها وبيان تهافتها على يد جمهرة من نفس الفصيل الذى جاء ذيوعها وشيوعها وانتشارها على أيديهم . أى من علماء الأحياء المتخصصين * وكان ردهم عليها بالأدلة العلمية التى أثبتت كذب هذه النظرية . وفساد ما أتت به من زعم أنها مسلمات كان ذلك بمثابة « شاهد من أهلها » على أن النظرية والقائلين بها والمروجين لها فى ضلال مبين .

مآخذ على نظرية التطور :

هذا وسوف نعرض بإيجاز بعضا من المآخذ على نظرية التطور :

١ - نظرية ** التطور قائمة على مجرد افتراضات حدسية ظنية ، لا دليل عليها . وكل ما أوردوه على أنه أدلة علمية لا يعدو كونه مشاهدات حاولوا تعليلها بافتراضات حدسية تخيلية استغلها الماديون لإنكار الدين النصرانى بصفة خاصة والأديان بصفة عامة .

---

* انظر : نقد الدعائم التى اعتمد عليها دارون فى نظريته .

** يوجد فرق كبير بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية . فالحقيقة العلمية هى التى ثبتت نصوصها وموادها بما لا يدع مجالا للشك فيها .. كما أنها غير قابلة للتغيير أو التبديل والتعديل ، وهى فى الوقت نفسه لا تغير من تفسير الحقائق التى تثبت صحتها ، وكذلك تعنى مطابقة الفكر للواقع ، أو كما يقول المتكلمين « مطابقة ما بالأذهان للأعيان » .
انظر : المعجم الفلسفى ص٧٤ طبعة مجمع اللغة العربية .

وهنا نتساءل إذا كانت هذه النظرية لم تصل بعد لأن تكون حقيقة علمية فلماذا تلقفها بعض العلماء والملاحدة ؟

الحقيقة أنها تحقق نزعاتهم ورغباتهم فى إنكار الخالق – عز وجل – وإرجاع كل شئ إلى الطبيعة . يقول « آرثر كيث » إن نظرية النشوء ما زالت حتى الآن دون براهين ، وستظل كذلك ، والسبب الوحيد فى أننا نؤمن بها هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر ، وهذا أمر غير وارد على الإطلاق ». وهذا يبين السبب فى وقوف اليهود وراء هذه النظرية بكل ما يمكلون من تأثير مادى وسياسى لأنها تهدف إلى إنكار الأخلاق والقيم .

٢ – إن القضايا التى تناولتها النظرية والقوانين التى تتحدث عنها وتقوم عليها مرتبطة بعصور سابقة عبر آلاف الملايين من السنين – كما يزعمون – وأن التحقق من افتراضاتها التى افترضتها هو من أكثر الأمور استحالة لارتباطه بهذه الأحقاب السحيقة فى الماضى عبر ملايين السنين .

٣ – أقام دارون نظريته على افتراضات تتصل بالأحقاب الماضية ، كذلك ربط بين نظريته والعصور المستقبلة على أساس من الوهم بأن العلم فى المستقبل

– أما النظرية العلمية فهى التى لم يقم على صحتها دليل يجعلها غير قابلة للتعديل أو التغيير أو التطور ، كما أن لديها القابلية لأن يضاف إليها غيرها من عناصر كانت تنقصها ، كما أنها تعطينا التفسير العلمى لظواهر جديدة ، ويمكنها التنبؤ بظواهر وعلاقات جديدة .
وعلى ذلك فهناك فرق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية فإذا ما وجدنا اختلافا بين نظرية علمية وبين دين سماوى فإنه يجب علينا أن نتريث حتى يمكن التأكد من صحة مواد تلك النظرية بما لا يدع مجالا للشك فيها . أى حتى تتحول تلك النظرية إلى حقيقة علمية . والثابت حتى الآن أن نظرية دارون التطورية ما هى إلا نظرية مجردة لم تصبح حتى الآن حقيقة .
انظر : قصة التطور بين العلم والدين ص١٤٢ وما بعدها .

وعن طريق الأحافير سوف يأتى بالأدلة القاطعة على صدق نظريته . وذلك بالعثور على بعض الهياكل التى تكمل الحلقة أو الحلقات المفقودة بين القرد والإنسان – على زعمه – .

حيث زعم دارون أن الحياة بدأت بخلية واحدة ، ثم تطورت حتى وصلت إلى القردة ، وأن الحلقات بين الخلية الأولى والقردة متتالية ومتوفر ما يدل عليها من الصور المختلفة للأحياء ، إلا أن بين القردة والإنسان الذى هو آخر حلقة فى سلسلة التطور حلقة مفقودة ، أى أن هناك كائنا حيا تطور عن القرد ، وعنه وجد الإنسان . وهذا الكائن المفقود هو الحلقة الفاصلة بين القرد والإنسان وقد أطلق عليه « دارون » اسم « القرد الإنسان » أو « الإنسان القرد » ، وقد زعم أن المستقبل القريب سوف يمدنا بتلك الحلقة عن طريق الأحافير ، وأن تلك الحلقة قد فنيت واندثرت بعامل الصراع بين الأحياء ، والبقاء للأقوى وعامل الانتخاب الطبعى .

يقول البروفيسور « دوان . ت – كيسن » : « وإذا كان دارون قد تكلم عما يسميه بالحلقة المفقودة بين القردة العليا والإنسان بوجه عام ، فالواقع أن هناك « حلقات مفقودة » كثيرة تتمثل فى تلك الأنواع أو الأشكال الهامشية والوسطية التى يخلو منها سجل الحفريات ... وقد كان دارون يرى أن العثور على مزيد من الحفريات كفيل بسد تلك الثغرات ، وبالتالى إثبات صحة نظريته ، وهذا أمر لم يتحقق ... إن ما حدث كان على العكس تماما ، فعلى الرغم من زيادة أعمال الحفريات والتنقيبات طيلة المائة سنة الأخيرة زيادة كبيرة ، إلا أن النتيجة التى أصبحت تتأكد سنة بعد أخرى كانت مخيبة لآمال التطوريين . فهذه الحفريات

جميعها تشير إلى أن جميع أنواع الحيوانات والنباتات ظهرت هكذا فجأة دون أية مقدمات أو أية حلقات وسطى مزعومة ، .[1]

٤ – إن البحوث العلمية والحفريات والتنقيبات قد أثبتت طيلة المائة سنة الأخيرة أنه لا يوجد ما أسماه التطوريون « الحلقة المفقودة » بين القردة والإنسان ، ومع أنهم قد أقروا بأن الفارق بين القرد والإنسان حلقات كثيرة ، وليس حلقة واحدة ، فإنه لم يوجد فى تاريخ الإنسان أو الحيوان عن طريق الأحافير أو حتى الاستنباط الذهنى ما يؤكد ذلك . بل ما حدث هو عكس ذلك كلية ، فقد وجدت آثار الأنواع الحيوانية متمايزا بعضها عن بعض تماما .

٥ – أثبتت الحفريات التى وجدت متحجرة منذ أحقاب سحيقة وجود جميع الأنواع البدائية ، والزاحفة ، والتى تمشى ، والتى تتسلق كلها وجد بعضها بجوار بعض فى نفس الأحقاب الضاربة فى القدم . فلم توجد الزواحف أولا ، ثم تأخر عنها فى الوجود الأنواع الأرقى . بل وجدت كلها معا ، مما يدل على أنها لم يتطور بعضها عن بعض ، بل وجد كل نوع منها فى الوقت الذى وجد فيه فجأة ودون أية مقدمات .

إنهم أقاموا نظريتهم على أساس أن الموجودات الدنيا التى تتمثل فى الحشرات الزاحفة قد وجدت أولا ، ثم تطورت شيئا فشيئا إلى موجودات أعلى حتى كان الإنسان وهذا فى زعمهم .

---

(١) فى نظرية التطور هل تعرضت لغسيل الدماغ ؟ محاضرة علمية ألقاها الأستاذ : دوان . ت. كيسن ترجمة وتعليق وتقديم أورخان محمد على ضمن سلسلة أبحاث فى ضوء العلم الحديث ص٦ وما بعدها نقلا عن : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٤٨ .

لكن المشاهد فى الواقع أن جميع تلك الأنواع حية تسعى على الأرض . بل إننا نجدها فى البيئة الواحدة . نجد أقل الحشرات وأكثرها ضآلة ونجد الزواحف بأنواعها من ديدان الأرض وثعابينها وحَيَّاتها . كما نجد الجراد والقمل والضفادع وما يماثلها ويقاربها . كل ذلك نجده بجانب الفيلة والقردة والحصان والإنسان .

فلماذا لم تنقرض الديدان والزواحف حينما ترقى عنها غيرها ؟ وإذا كان البعض من الزواحف ترقى والبعض الآخر بقى على حاله ، فلماذا لم يطرد ذلك القانون فى الزواحف جميعها فتترقى كلها أو تبقى على حالها كلها أيضا ؟ وإذا كان ما زعموه قانونا قد فقد سمة الاطراد فى جميع الحالات المشابهة والمتماثلة ، فكيف يكون قانونا ، وكيف يزعمون لأنفسهم العلم ، ويقولون عن خرافاتهم إنها نظرية علمية ؟

وهنا نتساءل لماذا نجد الكائنات البسيطة الحية البسيطة موجودة باقية ، وقد حازت أعظم المهارات الحياتية التى حفظت عليها وجودها وبقاءها أحقابا متتالية . وذلك مثل ، البكتيريا ، فهذا الكائن البسيط وحيد الخلية استطاع أن يعيش ويحتفظ بوجوده منذ أحقاب سحيقة وقد قهر جميع الظروف التى مرت به أو مر بها ، وما يزال يتحدى دارون ونظريته . بينما نرى أنواعا من الأحياء متطورة متقدمة – كما يقولون – تنقرض وتتلاشى من الوجود مثل الديناصورات بأنواعها .

لاشك أن هذا مخالف ومُبْطِلٌ لما تراه هذه النظرية وواضعوها من أن الكائنات البسيطة تتطور إلى الأكثر تعقيدا ثم تفنى ويبقى المتطور عنها وهكذا .... فالذى حدث هو العكس حيث فنى النوع المتقدم والأكثر تعقيدا ، وبقيت أبسط أنواع الحياة على حالها .

٦ – يزعم التطوريون أن عملية التطور مستمرة ودائمة لا تتوقف . وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا نرى أنواعا كثيرة تفنى وتختفى وتنقرض ، فى حين أننا لا نرى أنواعا تحدث وتظهر بديلا عن التى تختفى بحجة أنها تطورت عن التى اختفت – كما يزعمون – ؟ لقد قرروا أن أنواعا كثيرة قد اختفت من سجل الأحياء كالديناصورات ومثيلاتها ، فأين الكائن الذى تطور عنها ، وأصبح بديلا عنها ؟ لاشك أن هذا يدل على أن ادعاءاتهم التى زعموها قوانين إنما هى فى الحقيقة دعاوى وهم وتهريف .

٧ – إذا كان هؤلاء قد زعموا أن عملية التطور مستمرة لا تتوقف . فأين الآثار الملموسة لعملية التطور هذه فى مجتمعاتنا وبيئاتنا التى نعيشها ؟ إنهم يزعمون أن الإنسان بوضعه وشكله الحالى قد وجد منذ نصف مليون سنة تقريبا ، وإذا كان هذا صحيحا ، فأين إذن أثر قانون التطور فى الإنسان لم يظهر أثره فى الإنسان طوال نصف مليون سنة ؟ ألم يكن – من البدهى – أن يتطور الإنسان فتظهر أنواع جديدة متطورة عنه ، تختلف عن ذلك الذى ظل نصف مليون سنة على حال واحدة ؟ وكيف استطاع ذلك الكائن الذى وجد نتيجة لعملية التطور – على ما تقول النظرية – أن يقاوم تلك العملية ؟ ولماذا توقفت تلك العملية بالنسبة إليه ؟ إن الإنسان ظل على حاله طوال تلك المدة التى زعموها هم ، لم تزدد أصابعه إصبعا فى يد ولا رجل ولم تنقص ، ولم تتحور ذراعاه إلى أجنحة رغم محاولاته العديدة كى يطير ، حتى اضطر أن يبتدع آلات الطيران لما عجز عن ذلك بنفسه .

الحقيقة أن الإنسان يمثل الدليل الواضح والقوى على فساد هذه النظرية

وضلالها وزيف ما جاءت به مما زعموه قوانين ثابتة مستمرة . فالإنسان منذ وجد على الأرض هو الإنسان بشكله وصورته وتكوين أعضائه داخلية وخارجية . وليس هذا فى بيئة دون أخرى حتى يتعللوا - كشأنهم - بالبيئات والانتخاب الطبعى وغيره . بل إن الإنسان هو هو فى جميع البيئات التى وجد فيها فى الحضر فى الريف ، فى الغرب ، فى الشرق ، فى الأدغال والأحراش ، فى المجتمعات المتمدنة ، أو فى القبائل التى اكتشفها العلماء فى بعض الغابات التى لا يعرفها أحد ولا تعرف أحدا لم يطرأ عليه تغير ولو طفيفا طوال نصف مليون سنة - كما زعموا - وهذا يعنى أحد أمرين :

الأول : أنه لا يوجد قانون للتطور - كما زعموا - وأن النظرية باطلة .

الثانى : أن القانون الذى زعموه مستمرا ودائما ، قد توقف وتعطل ولم يعد يعمل منذ نصف مليون سنة . وعلى كلا الاحتمالين هم مهرفون مضللون ، ونظريتهم فاسدة باطلة .

٨ - وإذا تركنا المجتمعات الإنسانية التى لم يطرأ على الإنسان فيها تطور طوال المدة التى قدروها لوجود الإنسان - وهو تقدير غير مسلم - ثم ذهبنا إلى مجتمعات الأحياء الأخرى كالقردة - على سبيل المثال - فإننا نجد نفس الشئ الذى أشرنا إليه فى الفقرة الخاصة بالإنسان .

فإن القردة أسبق بملايين السنين من الإنسان فى الوجود - كما زعموا - والقردة على كثرة أنواعها وأشكالها ، ظلت تلك الملايين من السنين وهى على وضعها لم تتغير . وقد ذهبوا إلى أنها تحولت وتطورت إلى الإنسان . وأدلة كذبهم وافترائهم لا تقع تحت حصر .

فإذا كانت القردة قد تطورت إلى الإنسان ، أو تطور عنها الإنسان ؛ فلم لم تتطور جميعها ؟ ولماذا تطور بعضها دون البعض الآخر مع أن البيئات هى البيئات والظروف هى الظروف ؟

ثم ؛ لماذا توقفت عملية تطور القردة إلى الإنسان منذ ذلك العهد البعيد ؟ ولماذا لم يشاهد الناس طيلة آلاف من السنين وعاها الإنسان وسجل أحداثها ؟ لماذا لم يشاهد قردا تطور إلى إنسان ؟ لماذا لم يسجل التاريخ ولو حدثا واحدا أن الناس دخلوا إلى غاب القرود فوجدوا بينها إنسانا قد تطور عنها ، أو حتى نصف إنسان ونصف قرد ؟

إن هؤلاء يتحدثون عن حلقة مفقودة بين القردة الموجودة وبين الإنسان ، تلك الحلقة التى تطورت عن القردة الحالية ، ثم تطور الإنسان عنها ، إنهم يبحثون عنها بين الآثار والأحافير ... والسؤال : لماذا لم يتطور عن القردة الحالية تلك الحلقة التى هى بين الإنسان والقردة إذا كانت قد تطورت قبل ذلك ؟ لماذا توقفت عملية التطور عن إنتاج مثيل لتلك الحلقة التى أطلقوا عليها : « القرد الإنسان » أو « الإنسان القرد » ؟ لماذا ؟ والقردة موجودة وعملية التطور كما يقولون قانون آلى يعمل بلا وعى ولا بصيرة ؟

إن كلامهم غير صحيح ؛ لأن القردة على كثرة أنواعها لم يحدث أن خرج من نوع قرد قرد يشبه نوعا مختلفا من القردة ، فكيف يخرج من القردة إنسان ؟ بل إنه لم يحدث أن حدث تحوّر فى بعض أعضاء القردة كنوع من التطور المزعوم .

فهل يعقل أن يكون ثمة شئ يسمى التطور الخلقى أو الحيوى ، ثم يظل

الإنسان طيلة نصف مليون سنة دون أن يتطور إلى مخلوق أسمى وأكثر رقيا – كما تزعم النظرية التطورية الباطلة – . كما أنه لا يعقل أن تظل القردة ملايين السنين – كما يقررون هم – ، ثم لا نجد بينها عبر آلاف من السنين أثرا ولو يسيرا من التغير يطرأ على أى نوع منها على كثرة أنواعها وشيوعها .

٩ – هذا ومما يؤكد خطأ نظرية التطور ، وكذب كل ما أقاموه عليها من قوانين ، أن التجارب التى أجريت حول هذه النظرية طوال المائة سنة الأخيرة ، – وهى تجارب كثيرة وجادّة ومتنوعة – قد أثبتت كذب النظرية . وأن الأنواع الحية قد وجدت مستقلا بعضها عن بعض ، وأنه لا علاقة عضوية تربط نوعا بنوع آخر على أساس من تطور هذا عن ذاك ...

لقد بذلت محاولات جادة وصعبة ومكلفة من المال والجهد لاختبار صدق النظرية التطورية . وهذه المحاولات بذلت من كلا الفريقين . المؤيدين للنظرية رغبة فى تقويتها وتأكيدها والمعارضين لها رغبة فى كشف زيفها وبطلانها . وكانت النتائج جميعها مخيبة لآمال التطوريين ، مؤكدة أن الأنواع الحية قد وجدت مستقلا بعضها عن بعض ، وأن القول بتطور بعضها عن بعض أكذوبة كبرى .

يقول الأستاذ « جون – ن – مور » فى نهاية بحثه الذى قدمه إلى « معهد بحوث التطور » بفلادلفيا بأمريكا : « ... وأخيرا فإنه قد تم التوصل إلى ثبوت الأنواع ، وأن التفكير الحيادى المستند على البحوث التى أجريت خلال المائة سنة الأخيرة يقودنا إلى هذه الحقيقة ... ففى عالم الخلية وقوانين الوراثة ، لا يعثر التطوريون على أى دليل يسند نظريتهم ، فالصفات المكتسبة لا تورث ، والأنواع لا تنتج إلا نفس أنواعها . وعندما لجأوا إلى الطفرة أملا فى أن تكون التفسير

الوحيد لتغير الأنواع وتطورها ، لم تسعفهم تلك بشئ ، فقد حاولوا جهدهم ، وبكل الطرق أن يحدثوا طفرة كبيرة ونوعية في المختبر ، مستعملين كل عوامل ووسائل إحداث الطفرات من الأشعة فوق البنفسجية ، والأشعة السينية والمواد الكيماوية ، ودرجات الحرارة المؤثرة ... الخ . ومع ذلك لم يحصلوا على تغييرات طفيفة جاءت على هيئة تشوهات خلقية في الكائنات الحية التي أجروا عليها التجارب ... فقد أجروا التجارب على ثمانمائة جيل متعاقب ، لذبابة الفاكهة ، أجروا عليها تجارب متصلة ومستمرة – وهذه الأجيال الثمانمائة لذبابة الفاكهة تساوى فترة زمنية تقدر بعشرين ألف سنة بالنسبة للإنسان إذا اعتبرنا الجيل البشرى خمسة وعشرين عاما – ، لكنهم لم يحصلوا من تلك التجارب على ذبابة الفاكهة إلا على تشوهات طفيفة . أى أن الذبابة ظلت ذبابة ، ولم يقع لها أى تطور في قليل أو في كثير رغم أنهم حاولوا إحداث تغييرات في البيئة ، وفي ظروف المناخ ، وفي كل شئ تعلل به التطوريون على أنه سبب للتغيير ، ورغم تلك الأجيال الثمانمائة المتعاقبة .... فقد خرج العلماء من تلك المحاولة بالنتائج التالية :

١ – أن أغلب التغيرات تكون ضارة – وليست نافعة كما يزعم التطوريون .

٢ – أن الطفرات نادرة الحدوث في الطبيعة ، وكلما ترقى الكائن قل احتمال حدوث الطفرات عنده .

٣ – أن التغير الطارئ نتيجة الطفرة يبقى داخل النوع . أى لا يمكن لأية طفرة تغيير نوع الكائن الحى . إذ إن هناك هوة سحيقة فاصلة بين كل نوع ونوع . هوة لا يمكن تجاوزها بأى حال من الأحوال .[١]

---

(١) أبحاث في ضوء العلم الحديث ، بحث في نظرية التطور ، ترجمة أورخان محمد على ص٨ نقلا عن : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٥٤ وما بعدها .

مما سبق نجد أن مـا قاله التطوريون ، دارون ومن تابعه ، إنما هو كـذب وضلال ، وأن كل القوانين التى وضعوها ليصبغوا ضلالهم هذا بصبغة علمية ، إنما هى مفتريات وتخريفات ، لم يصل شئ منها إلى مستوى القانون العلمى ، بل لم يتوفر فيها شرائط ، الفرض العلمى ، وليس هذا رأيا خاصا ، وإنما هو كلام العلماء المتخصصين فى علوم الحياة والأحياء ، وكلامهم هذا لم يقم على أساس نظرىّ ، وإنما قرروه بعد مراحل قاسية ومضنية من التجارب العلمية التى شملت كل جوانب النظرية التطورية ، وبهذا يكون ما نقوله فى النظرية والداعين إليها ، هو ، كلمة العلم والعلماء ، أو كلمة ، أهل الذكر ، فى هذا المجال .

١٠ – نعرض الآن صورة أو نموذجا لما عليه تفكير التطوريين الذى يتبين من خلاله فكرهم المشوه ، وخيالهم المريض ليس هذا فقط بل يبين ويوضح كيف يفكر هؤلاء ، وكيف يوضحون للناس عملية التطور . ونعرض فى هذا الإطار تصويرهم لعملية ، تطور الأسماك إلى زواحف ، على لسان إحد الكاتبات الأمريكات اللائى يناصرن التطوريين ويدافعن عنهم تقول الكاتبة : ، ... وظهر الجفاف بالقرب من نهاية الزمن الباليوزى ، واستطاعت الأسماك القديمة – بعد جفاف البرك والأنهار – أن تزحف على الأرض للوصول إلى ما تبقى من هذه البرك ، وكان لهذه الأسماك التى استطاعت أن تتحرك على سطح الأرض أحفاد استطاعت هى نفسها أن تبقى خارج الماء لفترات أطول ... ، .[1]

وهنا نتساءل كيف لم يمت السمك حين جف الماء ؟ ونحن نعرف أن السمك إذا حُرِمَ من الماء أو خرج منه لأى سبب من الأسباب كانت النهاية

(١) قصة الحلقة المفقودة للكاتبة إليانور كلايمر ص٣٦ ترجمة د/ محمد رشاد الطوبى نقلا عن : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٠٦ .

الحتمية على اختلاف بين أنواعه فى المدة التى يقضيها حيا بعد خروجه من الماء ، فالبعض قد يظل دقيقة أو دقيقتين أو أكثر من ذلك لكن فى النهاية الحتمية لكل الأنواع هى الموت .. فكيف ظل السمك حيا بعد أن جفت المناطق التى كان يعيش فيها من البرك والأنهار ؟ وكيف أخذ يزحف على الأرض لكى يصل إلى الأماكن التى ما يزال فيها الماء ؟

وهنا ترد أسئلة لا جواب عنها عند هؤلاء منها :

أ - كيف زحف السمك على الأرض ؟ ونحن نعرف أن السمك يحسن العوم والسباحة ولا يعرف الزحف على اليابسة أبدا ؟

ب - كيف رأى السمك الأماكن التى ما يزال بها بعض الماء ليزحف إليها ومن المسلمات أن السمك لا يرى إلا فى الماء ، فإذا خرج من الماء فقد الرؤية .

جـ - كيف ظل السمك حيا دون أن يدركه الموت وهو يزحف هذه المسافات بحثا عن الماء ؟

د - هل رأى منا أحد أن السمك يزحف حين يخرج من الماء ، ويظل حيا يبحث هنا وهناك عن الماء ... إن الذى يفعله السمك عند خروجه من الماء هو القفز عدة مرات نتيجة خروجه من الماء (وهى البيئة الخاصة به) ثم يموت فى الحال .

لاشك أن هذا هو الواقع المسلم به والذى يدركه الخلق جميعا ... لكن هؤلاء التطوريين ليسوا معنا ... إن لهم أن يتخيلوا أشياء ويتوهموا ثم يخرجوا على الناس بهذا الإفك وذاك الضلال ، والواجب على الناس - فى نظرهم - أن يصدقوا هذا ويذعنوا له .

ليس هذا فقط ما أرادته هذه الكاتبة بل إنها بينت ببساطة شديدة كيف تطورت الزواحف عن الأسماك حيث قالت : « واكتشفت بعض أحفاد البرمائيات – فى يوم صاف جميل – أنها قادرة على البقاء خارج الماء بصفة مستمرة . وهكذا بدأ زمن الزواحف » . (١)

فالمسألة فى نظرها – فى غاية البساطة واليسر – إن السمك فى يوم صاف جميل – اكتشف فجأة أنه يستطيع أن يعيش خارج الماء ، كما اكتشفت الأسماك أن بعضها يمكن أن يتحول إلى ثعابين وحيات ، وبعضها إلى سحالٍ ، والبعض اختار أن يكون ضبا أو تمساحا وهكذا ..

وهنا يجب أن نلاحظ أمرا مهما ينبه إليه « أورخان محمد على » فى هذا الصدد حيث يقول : « إن السمكة لكى تتحول إلى حيوان برمائى ، فإنه من الضرورى أن يتغير فيها كل شئ خياشيمها ، عضلاتها ، عظامها ، دورتها الدموية ، نظامها العصبى ، أطرافها ... الخ » . (٢)

فهل تغير كل ذلك فجأة – فى يوم صاف جميل – كما تدعى هذه الكاتبة ؟ هل زحف السمك بحثا عن الماء ، وأثناء زحفه تغير فيه جسمه وخياشمه ودورته الدموية وأطرافه وجهازه العصبى الخ ؟

إن خير رد على هذا الهراء هو قول أحد علماء الأحياء تعليقا على نظرية « دارون » وتلك الآراء التى يتأتى بها أصحابها : « إن هذه تذكرنا بقصص الجن والسحرة ، عندما يقوم الساحر بقلب إنسان إلى حيوان ، أو حيوان إلى إنسان » . (٣)

---

(١) المرجع السابق ص٣٦ .

(٢) أبحاث فى ضوء العلم الحديث ص١٠ نقلا عن : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٥٨ .

(٣) المرجع السابق ص١١١ .

١١ – إن قضية الحياة ونشأتها فى الجماد وتلبسها بالمادة الميتة وهى آخر فقرة فى نقد هذه النظرية تمثل معول الهدم الرئيسى لهذه النظرية .

وهنا يرد سؤال وهو كيف نشأت الحياة على الأرض ؟

لاشك أن هذا السؤال لا يمثل مشكلة للمؤمنين المتدينين ، حتى أولئك الذين يدينون بالأديان الباطلة ، لأنهم جميعا يعتقدون أن الحياة نشأت على ظهر هذه الأرض بمستوياتها المختلفة ، من نبات وحيوان وإنسان ، بفعل إله خالق . نقول : قد يكون بعض المتدينين معتنقين أديانا باطلة ، لكن قضية الإيمان بخالق لهذا الكون ومانح الحياة للأحياء فيه قضية مسلمة عند الجميع وهى القاسم المشترك بين أصحاب الأديان على اختلافها . لذا قلنا إن الإجابة عن هذا السؤال لا تمثل مشكلة بالنسبة للمؤمنين بخالق للحياة ، وباعث لها فى الأحياء .

أما الملاحدة الذين لا يؤمنون بوجود إله خالق لهذا الكون ، وباعث للحياة فى الأحياء فهؤلاء الملاحدة على اختلاف أصنافهم عليهم أن يجيبوا عن هذا السؤال على الزنادقة والدهريين والشيوعيين والماديين وبصفة خاصة التطوريون إذ عليهم أن يفسروا لنا : كيف نشأت الحياة على هذه الأرض ؟ وكيف تحولت المادة الجامدة الميتة إلى شئ حى فيه الحركة والنماء والتغذى والحس والشعور والوعى والإدراك والعقل والذكاء ؟

إن الماديين لهم فى هذا المجال تهريفات كثيرة هى عبارة عن « فروض » يلقون بها لإزاحة الهم الجاثم على صدورهم بسبب عجزهم عن الإجابة عن هذا السؤال .

لذا نجدهم يزعمون تارة أن الحياة نشأت على ظهر الأرض بسبب « جراثيم

كونية ، كـانت هائمة ثم وصلت إلى الأرض وعنها نشأت الحـياة . وتارة أخرى يتحدثون عما يسمونه « التولد الذاتى » للحـياة فى المادة . وأحـيانا يشـيرون إلـى مـا يسـمـونه « نظرية الكمـون » فى نشـأة الحـيـاة على الأرض . إلى آخـر هذه التـهـريفـات الى هى فى واقع الأمـر خـيـالات مرضى ... وإذا كـانوا يلقون بتلك الفروض لإيجاد وسيلة للإجابة عن هذا السؤال الذى طرحناه من قبل فإنهم فى حـقيـقة الأمـر لا يجـيبـون بل هم عن طريق هذه الفـروض التى يطرحـونهـا إنما يكشفون عن عجزهم وحيرتهم ويعلنون فشلهم .

ولن نتحدث عن هذه الفروض التى يتحدث عنها الماديون الملاحدة . لكنا سنقف وقفة يسيرة عند « فرض » من هذه الفروض يسمونه « نظرية الانبثاق » وقد اقتصرنا على هذا الفرض ، لأن التطوريين يتمسكون به على أنه هو الموضح لوجود الحياة على الأرض ، ومادام هذا « الفرض » يمثل إجابتهم عن هذا السؤال فلنقف عنده قليلا لنتعرف عليه ونحلله .

يذهب أصحـاب هذا « الفـرض » إلى أن الحـيـاة لم يكن لهـا وجـود على الأرض لآلاف الملايين من السنين وكان كل شئ على الأرض جامدا لا يتحرك ، ولا أثر للحـياة فى شئ ثم فـجأة نشأت الصورة الأولى للحـياة عن طريق تـفاعل كيماوى نشأ نتيجة بعض العوامل الكيماوية ، وتوفر أو اجتماع العناصر الضرورية للحياة .

ثم نشأ من تجمعها كائنات أولية ، ثم قذف البحر ببعض هذه الكائنات إلى الأرض فتكيفت ... إلى آخر هذه التهريفات .

وهذه الفرضية الخيالية ليست وليدة « دارون » أو « لامارك » أو غيرهما من

التطوريين بل إن الكثيرين من الملاحدة القدامى قالوا بها تحت عنوان « التولّد الذاتى » ويعنى هذا بإيجاز شديد أن الحياة وجدت فى المادة الجامدة بذاتها دون خالق أو مبدع . فقد تولدت الحياة ووجدت ذاتيا فى المادة الجامدة . وقد قال القدامى بنفس الذى قال به هؤلاء . فقد كان من أشهر القائلين بنظرية « الانبثاق » أو « التولد الذاتى » عالم روسى شهير يسمى « الكسندر إيفانوفتسن أوبارين » وقد ذاع صيته واشتهر لدى الماديين تحديدا ، باعتبار أنه قد حل لهم مشكلة وجود الحياة أو نشأتها فى المادة الجامدة . ولقد كان هذا الرجل مقتنعا – بإطلاق – أنه من الممكن تصنيع أو « خلق » كائنات حية بسيطة داخل المعامل عن طريق التفاعلات الكيمائية لعناصر معينة .

ولقد عبر عن هذه الثقة المطلقة بقوله : « إن النجاح الذى حققه علم الجيولوجيا السوفيتية حديثا يؤيد « الوعد » بأن مسألة خلق كائنات حية بسيطة بطرق صناعية ليس ممكنا فحسب بل سيحقق عما قريب .. » .[1]

لكن هذا العالم المغرور لم يلبث بعد أن قضى سنوات طويلة ومعه فريق من الباحثين على أعلى مستوى – كما قيل – أن أعلن فشله هو ومن معه ، وفشل كل المحاولات التى قاموا بها طوال سنين لتصنيع أو « خلق » خلية واحدة حية ، ثم عاد يقول : « إن جميع المحاولات التى أجريت لتوليد الحياة من المواد غير العضوية سواء تحت ظروف طبيعية أو فى المعمل قد باءت بالفشل » .[2]

ومنذ ذلك العهد – ومع التقدم العلمى – بدأت نعْرة الغرور لدى علماء

(١) الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص٥٤ .
(٢) المرجع السابق .

الحياة تتضاءل ، وبدأوا يتكلمون فى كل شئ إلا فى « نشأة الحياة » فقد تركوا ذلك الأمر الجوهرى بالغ الخطورة الذى هو حجر الزاوية فى أى مذهب مادى ملحد إذ على الملاحدة من التطوريين أو غيرهم أنم يجيبوا عن ذلك السؤال .

كيف نشأت الحياة فى المادة الجامدة التى لا حياة فيها ؟ وهنا نترك المجال لعالم بارع من علماء الحياة والأحياء كى يناقشهم ويبين لهم بأسلوب علمى أن الحياة لا تنشأ دون خالق حكيم مبدع .

إن العالم الشهير « دوان . ت. كيسن » يصور نظريتهم فى وجود الحياة قائلا : « كان الوجود كله فراغا وعدما ، ثم انقلب الفراغ والعدم – فجأة – إلى مادة وإلى جوهر ... ثم تحولت هذه المادة إلى مواد عضوية بالغة التعقيد بمفردها ، وعن طريق الصدفة البحتة ، دون خالق أو مصمم أو منشئ » .

ثم يبين العالم تفسيرهم لنشأة الحياة صدفة بأسلوبه العلمى المتخصص فيقول : « ... تشكلت بعض الأحماض الأمينية صدفة ، ومن هذه الأحماض الأمينية تشكلت البروتينات الضرورية للحياة – وأيضا – صدفة » .

وبعد ذلك يرد عليهم ويبين بطلان وفساد بل واستحالة صحة ما ذهبوا إليه حيث يقول : « إن هذه الفرضية – غير العلمية – مليئة بنقاط الضعف ... ونقطة الضعف الأولى فى هذه الفرضية هى أن : سرعة تحلل المركبات الكيماوية البسيطة مثل الأحماض الأمينية – بعوامل الأشعة فوق البنفسجية ، أو التفريغ الكهربائى ، أسرع كثيرا من سرعة تكونها . ولأن سرعة تحللها أكبر بكثير من سرعة تكونها يصبح من المحال القول بتكونها ذاتيا ... .

والعائق الثانى ، أو نقطة الضعف الثانية التى لا يمكن تجاوزها أو تخطيها ،

هى أن الأحماض الأمينية ، يجب أن تنتظم فى سلسلة معينة وبنظام دقيق لكى تكون البروتين ، الذى تعتمد عليه الحياة فى كافة أشكالها ... لكن المشكلة أن جميع قوانين الكيمياء والفيزياء تجعل ذلك مستحيلا . إن فرصة تشكل وتكون جزئ بروتينى واحد ، مكون من خمسين حامضا أمينيا فقط عن طريق الصدفة - كما يقولون - حسب قانون الاحتمالات هى « عشرة » مضروبة فى « خمس وستين » أى رقم « ١ » وعن يمينه خمسة وستون صفرا ، وانظر كيف تتكون خلية واحـدة ، وهى تحـوى عـدة آلاف من أنواع البـروتينات وعـدة بلايين من الأحماض » .(١)

ونقول : إذا كانت قرضية وجود جزئ واحد من الحمض الأمينى عن طريق الصدفة على هذا القدر من الاستحالة ، فما بالنا بخلية واحدة تحوى البلايين من هذا النوع مع الجزئيات الأخرى التى هى فى أعلى درجات التعقيد ، إضافة إلى التراكيب الأخرى المعقدة ، ثم إذا كان ذلك بالنسبة لخلية واحدة ، فماذا عن كائن دقيق يحوى جسمه البلايين من الخلايا ، فضلا عن الكائنات والأحياء الأرقى .

ثم إذا كانت تلك الاستحالات بالنسبة للحياة فى المادة ، فماذا عن هذا الكم الهائل من الملكات والقوى غير المادية التى تصاحب الأحياء ؟ ماذا عن الغرائز لدى الحيوان ، ومن علمه ؟ ومن غرس فيه تلك التى تمسك عليه حياته أو لا ، ثم تضمن استمرار نوعه ثانيا ؟

ماذا عن الإدراكات البسيطة فى الحيوانات الأرقى كالقردة ؟ ماذا عن

(١) فى نظرية التطور ص٤١ وما بعدها ترجمة أورخان محمد على نقلا عن : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٦١ .

العواطف والمشاعر ، ما يخص منها الأبوة والأمومة والبنوة وغيرها ؟ ثم ماذا عن القوة العاقلة فى الإنسان ؟

هل جاء كل ذلك عن طريق « الصدفة » و«فجأة » ؟ (١)

إن « دارون » وأتباعه قد أقروا بعجزهم عن وجود تفسير مقنع لظهور الحياة على الأرض . ولذلك قال « دارون » إن التطور لا يفسر وجود الحياة ، ولكن غاية ما يصبو إليه التطوريون هو تفسير تعدد الأنواع واختلافها » .

ويقول أيضا عن « سر الحياة » : « إننى لا أستطيع أن أدعى أننى ألقى بصيصا من الضوء على مثل هذه المشاكل العميقة – نشأة الحياة – فإن سر بداية الحياة أمر غير قابل للحل » .(٢)

ومع إقرار « دارون » وأشياعه من الملاحدة بأن الحياة لا يمكن أن توجد صدفة ، وأنها – رغم فروضها الكثيرة حول نشأتها – تظل أمرا « غير قابل للحل » فإنهم يصرون على إلحادهم وكفرهم ... وما كان أحراهم – وهم على قدر من العلم بالحياة والأحياء – أن يدركوا الحل الحق والواضح لهذه المعضلة لديهم . وهذا لا يكلفهم شيئا سوى أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴿ الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ (٣) . إلا أن كفرهم وضلالهم أبى إلا أن يبحثوا عن نشأة الحياة بعيدا عن الخالق – سبحانه – وأنى لهم ذلك والله – عز وجل –

---

(١) انظر : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٦٢ .

(٢) مجلة تراث الإنسانية ١٩٧١م نقلا عن : المذاهب المعاصرة للدكتور محمود مزروعة ص١٦٢ .

(٣) الآية ﴿ ٧ ﴾ من سورة السجدة .

يقـول : ﴿ مـا أشـهدتـهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسـهم ومـا كنت متـخذ المضليين عضدا ﴾ .[1]

هذا وقد ظهر بطلان هذه النظرية لدى الغربيين ، فرفضت فى البيئة التى نشأت فيـهـا . إلا أنه من العـجب العـجاب أنـها مـا زالت تدرس فى المجـتـمعات الإسلامية .

وبعـــد ،

فإنه قد بان أن الإسلام لا يرفض قضية التطور بإطلاق . وقد اتضح لنا من خـلال عـرض آراء الإسـلاميين فـى التطورات ، أنهم بينوا أن التطور سنة الله فى خلقـه ، لكـن التطـور الذى أراده الإسـلامـيـون ، والذى أشـار إليـه القـرآن الكـريم إنما يعنى أمرين :

الأول : أن المخلوقات كلها فى ذاتها تمر بمراحل منذ تكوينها جنينا حتى يكتمل خلقها . وهذا هو المراد بقولـه – تعالى – : ﴿ وقـد خلقكـم أطـوارا ﴾ [2] . وقـد بين القـرآن هذه الأطوار فى الإنسـان فى قـوله – تعـالـى – : ﴿ ولقـد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جـعلناه نطفـة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة . فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [3] .

الثانى : إن مخلوقات الله – تعالى – جميعها لـم توجـد فى وقـت واحـد ،

---

(١) الآية ﴿ ٥١ ﴾ من سورة الكهف .
(٢) الآية ﴿ ١٤ ﴾ من سورة نوح – عليه السلام – .
(٣) الآيات ﴿ ١١ – ١٤ ﴾ من سورة المؤمنون .

بل كان بعضها أسبق فى الوجود من بعض . فالماء قبل التراب ، والبحر قبل البر ، والتراب قبل النبات ، والنبات قبل الحيوان ، والحيوان قبل الإنسان . والإنسان آخر هذه المخلوقات كلها . لأنه سيدها وحاجته إليها ضرورية ، ولأن الله – تعالى – قد خلقها وسخرها من أجله . يقول الله – عز وجل – : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾ (١) .

هذه هى معانى التطور التى جاء الإسلام بها .

أما التطور المادى الحيوى الذى جاء به دارون ومن قبله ومن بعده ، والذى يعنى أن المخلوقات جميعها إنما بدأت بخلية متفردة ، ثم تطورت وانبثق عنها جميع الموجودات التى تمثل كلها حلقات متتابعة فى سلسلة واحدة .... وأن تطورها وانبثاقها بعضها عن بعض لا يحتاج إلى خالق مبدع ، وإنما يسير سيرا آليا ماديا جامدا .

أقول : هذا المعنى باطل باطل يرفضه الإسلام ، ويرفضه العقل ويرفضه الواقع ، وقد رفضه علماء الغرب الماديون وغير الماديين على سواء .

(١) جزء الآية ﴿ ١٣ ﴾ من سورة الجاثية .